

شكرات المبررات

منتدى إقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

وَشِدَّتْهُ

منتدى إقرأ الثقافي

للكتب (كوردى - عربى - فارسى)

www.iqra.ahlamontada.com

ضياء سعيده

تأليف صلاح الدين محمود

تأليف الغد الحائر
النصيرة

سُرَّكَرَاتِ الْمَوْتِ

وَشِدَّتْهُ

تَأَلِيفُ

صَلَّاحِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ

دَارُ الْغَدِّ الْجَدِيدِ
الْمَنْصُورَةِ



جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لـ

دار الغد الجديد

القاهرة - المنصورة

EXCLUSIVE RIGHTS
BY
DAR AL-GHAD AL-GADEED
EGYPT - AL-MANSOURA

الطبعة الأولى
١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

دار الغد الجديد

القاهرة، ١٢ ش درب الاتراك خلف الجامع الأزهر
المنصورة، ش عبد السلام عارف أمام جامعة الأزهر

٠٠٢٠٥٠ / ٢٢١٦٨٩٨

ت فاكس / ٠٠٢٠٥٠٢٢٩٤٧٦٦

٠٠٢٠١٠٥٥٠٢٨٢٨

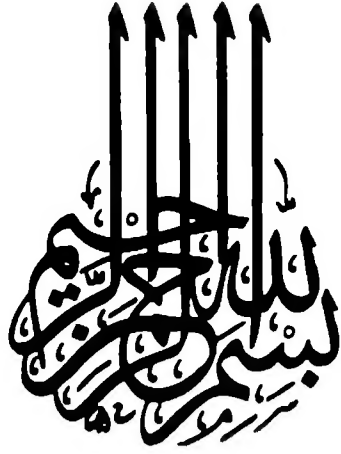
صندوق بريد، 35111

EMAIL: DAR-ALGHAD@YAHOO.COM

رقم الإيداع : ١٠٦٧٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي I.S.B.N.

977-6050-74-3



مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الاحزاب: ٧٠، ٧١] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ثم أما بعد :

قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] يموت كل صغير وكبير يموت كل أمير ووزير يموت كل عزيز وحقير يموت كل غني وفقير يموت كل نبي وولي يموت كل نجي وتقى يموت كل زاهد وعابد يموت كل مقر وجاحد يموت كل صحيح وسقيم يموت كل مريض وسليم . كل نفس تموت غير ذي العزة والجبروت .

أخى : لا تكف دمعك حتى ترى فى المعاد ربحك ولا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم ولا تبت وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور .

أخى : إن الموتى لم ييكونوا من الموت ولكنهم ييكون من حسرة الفوت . فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها ودخلوا داراً لم يتزودوا لها فأى ساعة مرت على من مضى؟ وأى ساعة بقيت علينا؟

أخى : إن الآمال تطوى والأعمار تفنى والأبدان تحت التراب تبلى وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد يقربان كل بعيد ويبلان كل جديد وفى ذلك ما يلهى عن الشهوات ويسلى عن اللذات ويرغب فى الباقيات الصالحات .

أخى انتبه . . . فالدنيا أضغاث أحلام ودار فناء ليست بدار مقام ستعرف وتفهم نصحى لك بعد أيام .

وما غاب عنك ستراه على التمام إذا كشف الغطاء عنك صار بصرك حديد وهناك تندم ولات ساعة الندم .

وهذا كتابى إليك : « انتبه . . . الموت قادم » .

أرجو الله أن يوافق قلبا حاضراً وعقلاً واعياً فتنتفع بهذه الكلمات فتقف وقفة صدق مع النفس وتنظر أراحل أنت أم مقيم وإذا كنت راحلاً فإلى أين المصير ؟ إلى جنة أم إلى نار وأحضر قلبك عند قراءة هذه الموعظة فرحم الله عبداً اقترف فاعترف ووجل فعمل وحاضر فبادر وعُمر فاعتبر وأجاب فتاب ورجع فتاب وتزود لرحيله وتأهب لسييله .

وكتبه

أبو أنس

صلاح الدين محمود السعيد

النهي عن تمنى الموت إلا عند خوف ذهاب الدين

اعلم أخى: أن الإسلام نهانا عن تمنى الموت والدعاء به حتى يزداد المحسن إحسانا ويتوب ويرجع المسىء عن غيئه.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه فإن كان لا بد فاعلاً فليقل : اللهم أحيى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » [رواه البخارى ومسلم].

وعن قيس بن أبى حازم: « دخلنا على خباب نعوذه وقد اكتوى سبع كيات فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا وأنا أصبنا مالا نجد موضعاً إلا التراب ولولا أن النبى ﷺ، نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به ثم أتينا مرة أخرى وهو يبنى حائطاً له فقال: إن المسلم ليؤجر فى كل شيء ينفقه إلا فى شيء يجعله فى هذا التراب » . [رواه البخارى].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لن يدخل أحدًا عمله الجنة ». قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة فسدّدوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب » [رواه البخارى].

وروى عن سهل بن عبد الله التستري أنه قال: «لا يتمنى أحدكم الموت إلا ثلاثة: رجل جاهل بما بعد الموت أو رجل يعز من أقدار الله تعالى عليه أو مشتاق محب للقاء الله عز وجل » [التذكرة ص ١٠].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما من مؤمن إلا والموت خير له فمن لم يصدقنى فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّيْ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال حيان بن الأسود: الموت صبر يوصل الحبيب إلى الحبيب. [التذكرة ص ١١].

والأحاديث السابقة فيها إشارة إلى أن المعنى فى النهى عن تمنى الموت والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت فإن الحياة يتسبب منها العمل والعمل يحصل زيادة الثواب ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال ولا يرد على هذا أنه يجوز أن يقع الارتداد والعياذ بالله تعالى عن الإيمان لأن ذلك نادر والإيمان بعد أن تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد وعلى تقدير وقوع ذلك . وقد وقع لكن نادراً . فمن سبق فتعجيله بطلب الموت لآخر له فيه . ويؤيده حديث أبى أمامة : أن النبى ﷺ قال لسعد : « يا سعد إن كنت خلقت للجنة فما طال من عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك » [أخرجه بسند لين] . ووقع فى رواية همام عن أبى هريرة عند أحمد ومسلم « وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً » واستشكل بأنه قد يعمل السيئات فيزيده عمره شراً وأجيب بأجوبة : أحدها حمل المؤمن على الكامل وفيه بعد والثانى أن المؤمن بصد أن يعمل ما يكفر ذنوبه إما من اجتناب الكبائر وإما من فعل حسنات آخر قد تقاوم بتضعيفها سيئاته وما دام الإيمان باق فالحسنات بصد التضعيف والسيئات بصد التكفير .

والثالث يقيد ما أطلق فى هذه الرواية بما وقع فى رواية الباب من الترجى حيث جاء بقوله « لعله » . والترجى مشعر بالوفوع غالباً لا جزماً فخرج الخبر مخرج تحسين الظن بالله وأن المحسن يرجو من الله الزيادة بأن يوفقه للزيادة من عمله الصالح وأن المسئء لا ينبغي له القنوط من رحمة الله ولا قطع رجائه أشار إلى ذلك شيخنا فى [شرح الترمذى] ويدل على أن قصر العمر قد يكون خيراً للمؤمن حديث أنس الذى فى أول الباب « وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » . وهو لا ينال فى حديث أبى هريرة : « إن المؤمن لا يزيده عمره إلا خيراً » . إذا حمل حديث أبى على الأغلب ومقابله على النادر [فتح البارى ج ١٠ ص ١٣٦] .

واعلم أنه يجوز تمنى الموت والدعاء به عند خوف ذهاب الدين أو عند الفتنة . كما قالت مريم عليها السلام : ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا ﴾ [٢٣] ﴿ [مريم] .

وكما قال يوسف ﷺ : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [١٠٠] ﴿ [يوسف] .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه » [رواه البخاري ومسلم].

وذلك سيكون لشدة ما ينزل بالناس من فساد الحال في الدين وضعفه وخوف ذهابه لا لضرر ينزل بالمرء في جسمه أو غير ذلك وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اللهم قد ضعفت قوتي وكبرت سني وانتشرت رعبتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مقصر فما جاوز ذلك الشهر حتى قبض رحمه الله [التذكرة ص ١٢].

وذكر أبو عمر بن عبد البر في التمهيد والاستذكار من حديث زاذان أبي عمر عن عليم الكندري قال: كنت جالساً مع عابس الغفاري على سطح فرأى ناساً يتحملون من الطاعون فقال: يا طاعون خذني إليك يقولها ثلاثاً.

فقال عليم: لم تقول هذا؟ ألم يقل رسول الله ﷺ: « لا يتمنين أحدكم الموت فإنه عند ذلك انقطاع عمله ولا يرد فيستعقب ». فقال عابس: أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بادروا بالموت ستاً: إمرة السفهاء وكثرة الشرط وبيع الحكم واستخفافاً بالدم وقطيعة الرحم ونشأاً يتخذون القرآن مزامير يقدمون الرجل ليغنيهم بالقرآن وإن كان أقلهم فقهاً » [رواه أحمد والحاكم صحيح الجامع ٢٨١٢].

وقد قال عبد الله بن مسعود: « سيأتي عليكم زمان لو وجد أحدكم الموت يباع لاشترائه ». وقد قال الشاعر:

وهذا العيش ما لا خير فيه ألا موت يباع فأشتريه

قال ابن بطال: تغط القبور وتمنى الموت عند ظهور الفتن إنما هو خوف ذهاب الدين بغلبة الباطل وأهله وظهور المعاصي والمنكر انتهى.

وليس هذا عاماً في حق كل أحد وإنما هو خاص بأهل الخير وأما غيرهم فقد يكون لما يقع لأحدهم من المصيبة في نفسه وأهله أو دنياه وإن لم يكن في ذلك شيء يتعلق بدينه ويؤيده ما أخرجه في رواية أبي حازم عن أبي هريرة عند مسلم « لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني مكان صاحب

هذا القبر وليس به الدين إلا البلاء » وذكر الرجل فيه للغالب وإلا فالمرأة يتصور فيها ذلك والسبب فى ذلك ما ذكر فى رواية أبى حازم أنه [يقع البلاء والشدّة حتى يكون الموت الذى هو أعظم المصائب أهون على المرء فيتمنى أهون المصيبتين فى اعتقاده] وبهذا جزم القرطبى . وذكره عياض احتمالاً . وأغرب بعض شراح [المصابيح] فقال : المراد بالدين هنا العباد والمعنى أنه يتمرغ على القبر ويتمنى الموت فى حالة ليس التمرغ فيها من عادته وإنما الحامل عليه البلاء . وتعقبه الطيبى بأن حمل الدين على حقيقته أولى أى ليس التمنى والتمرغ لأمر أصابه من جهة الدين بل من جهة الدنيا وقال ابن عبد البر . ظن بعضهم أن هذا الحديث معارض للنهى عن تمنى الموت وليس كذلك وإنما فى هذا أن هذا القدر سيكون لشدّة تنزل بالناس من فساد الحال فى الدين أو ضعفه أو خوف ذهابه لا لضرر ينزل فى الجسم ، كذا قال وكأنه يريد أن النهى عن تمنى الموت هو حيث يتعلق بضرر الجسم وأما إذا كان لضرر يتعلق بالدين فلا . وقد ذكره عياض احتمالاً أيضاً وقال غيره : ليس بين هذا الخبر وحديث النهى عن تمنى الموت معارضة لأن النهى صريح وهذا إنما فيه إخبار عن شدة ستحصل ينشأ عنها هذا التمنى وليس فيه تعرض لحكمه وإنما سيق للإخبار عما سيقع البلاء [فإنه سيق مساق الدم والإنكار وفيه إيماء إلى أنه لو فعل ذلك بسبب الدين لكان محموداً ويؤيده ثبوت تمنى الموت عند فساد أمر الدين عند جماعة السلف قال النووى : لا كراهة فى ذلك ، بل فعله خلائق من السلف منهم عمر بن الخطاب وعيسى الغفارى وعمر بن عبد العزيز وغيرهم . ثم قال القرطبى : كأن فى الحديث إشارة إلى أن الفتن والمشقة البالغة ستقع حتى يخف أمر الدين ويقل الاعتناء بأمره ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه ومعاشه نفسه وما يتعلق به ومن ثم عظم قدر العبادة أيام الفتنة كما أخرج مسلم من حديث معقل بن يسار رفعه « العبادة فى الهرج كهجرة إلى » . ويؤخذ من قوله : « حتى يمر الرجل بقبر الرجل » أن التمنى المذكور إنما يحصل عند رؤية القبر وليس ذلك مراداً بل فيه إشارة إلى قوة هذا التمنى لأن الذى يتمنى الموت بسبب الشدة التى تحصل عنده قد يذهب ذلك التمنى أو يخف عند مشاهدة القبر والمقبر فيتذكر هول المقام فيضعف تمنيه فإذا تمادى على ذلك دل على تأكد أمر تلك الشدة عنده حيث لم

يصرفه ما شاهده من وحشة القبر وتذكر ما فيه من الأهوال عن استمراره عن تمنى الموت . وقد أخرج الحاكم من طريق أبي سلمة قال : « عدت أبا هريرة فقلت : اللهم اشف أبا هريرة فقال : اللهم لا ترجعها إن استطعت يا أبا سلمة فمت والذي نفسى بيده ليأتين على العلماء زمان الموت أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر وليأتين أحدهم قبر أخيه فيقول : ليتنى مكانه [. وفى كتاب الفتن من رواية عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال : [يوشك أن تمر الجنازة فى السوق على الجماعة فيراها الرجل فيهبز رأسه فيقول : يا ليتنى مكان هذا . قلت يا أبا ذر إن ذلك أمر عظيم . قال : أجل [فتح البارى ج ٣ ص ٨١] .

ذكر الموت والاستعداد له

جدير بمن الموت مصرعه والتراب مضجعه والدود أنيسه ومنكر ونكير جليسه والقبر مقره وبطن الأرض مستقره والقيامة مواعده والجنة والنار مورده ألا يكون له فكر إلا فى الموت ولا ذكر إلا له ولا اهتمام إلا به ولا حول إلا حوله ولا انتظار ولا تربص إلا له وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراهها فى أهل القبور فإن كل ما آت قريب والبعيد ما ليس بآت ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له والنظر فى المنبهات عليه فاحذر الموت فإنه الخطب الأفظع والأمر الأشنع والكأس التى طعمها أكره وأبشع . الهادم للذات والأقطع للراحات والأجلب للكريهات .

قال الإمام القرطبي :

تفكر يا مغرور فى الموت وسكرته وصعوبة كأسه ومرارته فيا للموت من وعد ما أصدقه ومن حاكم ما أعدله كفى بالموت مقرحاً للقلوب ومبكياً للعيون ومفرقاً للجماعات وهازماً للذات وقاطعاً للأمنيات فهل تفكرت يا ابن آدم فى يوم مصرعك وانتقالك من موضعك وإذا نقلت من سعة إلى ضيق وخانك الصاحب والرفيق وهجرك الأخ والصديق وأخذت من فراشك وغطوك من بعد لين اللحاف بتراب ومدر فياجا مع المال والمجاهد فى البنيان ليس لك والله إلا الأكفان بل هى والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب . فأين الذى جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال ؟ كلا بل تركته إلا من لا يحمذك وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك [التذكرة ١٦/١] .

كان يزيد الرقاشى يقول لنفسه : ويحك يا يزيد من ذا يصلى عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟ ثم يقول : أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم ؟ من الموت ضئبه ونقبر بيته والتراب فراشه والدود أنيسه وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حنه ؟

ثم يبكى حتى يسقط مغشياً عليه .

وقال التيمي : شيان قطعاً عنى لذة الدنيا : ذكرت الموت . وذكر الموقف بين يدي الله تعالى وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يجمع العلماء فيتذكرون الموت والقيامة والآخرة فيكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال أبو نعيم : كان الثوري إذا ذكر الموت لا يُنتَفِعَ به أياماً . فإن سئل عن شيء قال : لا أدري لا أدري . [التذكرة ص ١٥] .

وقال الإمام الغزالي : لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرد ما كان جديراً بأن يتنصص عليه عيشة ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكرة ويعظم له استعداداه لا سيما وهو في كل نفس بصدده .

كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك [الإحياء ٤/٤٤٥] .

كم مأخوذ على الزلل ختم له بسوء العمل نزل به الموت فيا هول ما نزل فأسكنه القبر فكأن لم يزل . وهو مصير الغافل لو غفل . ﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ [الحجر: ٣] .

كم نائم على فراش التقصير ومغتر بعمر قصير . صاح به فلم يبال النذير فاستلبه الخطأ والتبذير . فلما أحس البأس ثارت من نيران الندم شغل ﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ .

كم مستحل شراب الهوى . شرب من كأسه حتى ارتوى . بينما هو على جادة إغراضه هوى . فما نفعه عند الموت ما حوى ولا ما شرب ولا ما أكل ﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ .

ولا تغتر بنعيم القوم فإن غدا بعد اليوم . دعهم فيما يؤثر فيهم اللوم وهل ينفع التحريك ميتا هل ﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ .

يجمعون الخطام بكسب الحرام ويتفكرون في نصب شرك الآثام والناس نيام

يرقدون فى الليل وفكرهم فى الويل طويل لا ينام والاقدام فيما لا يحل إقدام تسعى فى هواها سعى الرمال . ﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ .

ما عندهم خبر الساعة والعمر يمضى ساعة فساعة . خسروا فى أشرف تجارة وأعلى بضاعة يتناقلون تناقل عطارى فى الطاعة فإذا لاح الذنب ذهل . ﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ .

كيف بكف يعيا ويعيث كيف نحذرهما شر الخطايا وكل فعلها خبيث كيف فخوفها قليل الذنب ولسان الحال يستغيث أنا الغريق فما خوفى من البلى : ﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر هازم اللذات » . [رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة صحيح الجامع ١٢١٠] .

قال الغزالى : « معناه تعصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للأخرة والغفلة تدعو إلى الانهماك فى شهوات الدنيا . » الإحياء ٤ / ٣٣٤ .

قال عمر بن عبد العزيز : إذا كنت فى سعة من العيش وأردت أن يضيق عليك فاذكر الموت وإذا كنت فى ضيق من العيش وأردت أن يتسع عليك فاذكر الموت . نعم الموت هو الحقيقة الباقية .

قال الدقاق رحمه الله : من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة وقناعة القلب ونشاط العبادة .

ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل فى العبادة « التذكرة ١٧ / ١ » .

أخرج ابن أبى شيبه عن عون بن عبد الله قال : ما أحد ينزل الموت حق منزلته

لا من مد غداً ليس من أجله . كم من مستقبل يوماً لا يستكمله وراح غداً لا يبلغه .
نك لو ترى الأجل ومسيره لأبغضت الأمل وغروره .

وعن ابن حازم قال: انظر الذى تحب أن يكون معك فى الآخرة فقدمه اليوم
وانظر الذى تكره أن يكون معك ثم فاتركه اليوم . كل عمل كرهت الموت من أجله
فاتركه ثم لا يضرک متى مت .

وأخرج ابن أبى الدنيا : عن صفية أن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها القسوة
يعنى فى قلبها فقالت عائشة : ذكر الموت يرق قلبك .

كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والآخرة والقيامة
ثم يبيكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وأخرج نعيم بن حماد عن عبد الله بن مسعود قال :

كفى بالموت واعظاً وكفى باليقين غنى وكفى بالعبادة شغلاً . [الزهد لأبى نعيم ص

. [٣٨ ، ٣٧]

بكى أبو هريرة فى مرضه . فقليل له : ما يبكيك ؟ فقال : أما إني لا أبكى على
دنياكم هذه ولكن أبكى على بعد سفرى وقلة زادى وإني أمسيت فى صعود مهبطه
على جنة ونار لا أدري إلى أينها يؤخذ بى .

قال على بن أبى طالب : ألا أخبركم بأعظم الحسرات رجل جمع درهما إلى
درهم وقيراطاً إلى قيراط ثم مات وورثه غيره فوضعه فى حقه وأمسكه عن حقه .

كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة وأبلغ فى الموعظة فإن من ذكر الموت حق
ذكره نفص عليه لذته الحاضرة ومنعه من تمنيتها فى المستقبل وزهده فيها كان منها يؤمل
ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الالفاظ
وإلا ففى قوله عليه الصلاة والسلام : « أكثروا من ذكر هازم اللذات » مع قوله
تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . ما يكفى السامع له ويشغل
الناظر فيه .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له والإنس والجن فيما بينهما ترد
أين الملوك التي كانت لعزتها من كل أوب إليها وافد يفد؟
حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوماً كما وردوا

إذا ثبت ما ذكرنا فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدنيا الفانية . والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة ونعمة ومحنة فإن كان في حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه فإنه لا يدوم والموت أصعب منه أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها والسكون إليها .

قال الغزالي رحمه الله : اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم ومن لم يذكره ليس يذكره بقلب فازغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فليرجع ذكر الموت في قلبه فالطريف فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة ^(١) مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وأنجع ^(٢) طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قلبه فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاءهم في قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فمهما تذكر رجل رجلاً وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمواتة الأسباب

(١) المفازة : صحراء مهلكة .

(٢) أنجع : أفضل وأحسن وأنجح .

وركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه مالا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاء الموت في وقت لم يحتسبه فأنكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم .

من أحوال وأقوال الصالحين في ذكر الموت :

قال إبراهيم التيمي : شيان قطعاً عنى لذة الدنيا : ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل .

وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها .

وقالت صفية رضي الله عنها : أن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت : أكثرى ذكر الموت يرق قلبك .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظمى فقال : لست أول خليفة تموت قال : زدنى . قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك . فبكى عمر لذلك .

وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت . وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد . [بستان الواعظين ص ١٥٢] .

نظر عمرو بن العاص إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين فقليل له : هذا شيء لم تكن تصنعه ؟ فقال : ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما .

وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى ؟ يوم أوضع في قبرى .

وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقليل له في ذلك فقال : أجلس إلى قوم

يذكرونى معادى وإذا قمت لم يغتابونى .

وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلاً ويقول : يا أهل القبور ما لى إذا دعوتكم لا تجيبونى : ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بى أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يا فلان لقد أرقّت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة أيام فى قبره لاستوحشت من قربهِ بعد طول الأنس منك به ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ويجرى فيه الصديد وتخرقه الديدان مع تغيرّ الرياح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وكان يزيد الرقاشى يقول : أيتها المقبور فى حفرتهِ والمتخلى فى القبر بوحدته المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأى إخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبيل عمامته ثم يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة واغبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى .

وقال حاتم الأصم : من مرّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدعُ لهم فقد خان نفسه وخانهم .

وكان بكر العابد يقول : يا أماء ليتك كنت بى عقيماً إن لابنك فى القبر حبساً طويلاً ومن بعد ذلك منه رحيل .

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ما أحسن ظواهركَ إنما الدواهى بواطنك .

وكان عطاء السلمى إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول : يا أهل القبور متُّ فواموتاه . وعايتم أعمالكم فوا عملاه ثم يقول : غداً عطاء فى القبور . غدا عطاء فى القبور . . . فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح .

وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبراً فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقولك ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا

تَرَكَتُ [المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠] .

يردها ثم يردُّ على نفسه . يا ربيع قد رجعت فاعمل .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال : يا ميمون هذه قبور آبائي بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم . أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات : «العقوبات» . واستحكم فيهم البلى وأصابته الهوام مقيلاً « المقيـل » من القيلولة أى سكنت الهوام الحشرات واستراحت فى أجسادهم بعد موتهم فى أبدانهم ؟ ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحداً نَعَمَ ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن عذاب الله .

وقال ثابت البناني : دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول : يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها .

وروى عن مطرف ابن أبى بكر الهذلى قال : كانت عجوز فى عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغنى أنها عوتبت فى كثرة إتيانها المقابر فقالت : إن القلب القاسى إذا جفا لم يلىنه إلا رسوم البلى وإنى لآتى القبور فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفـره وإلى تلك الأجسام المتغيرة فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشد تلفها للأبدان .

ودخل فقيه على عمر بن عبد العزيز فتعجب من تغير صوته لكثرة الجهد والعبادة فقال له : يا فلان لو رأيتنى بعد ثلاث وقد أدخلت فى قبرى وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم وتناً البطن فعلا الصدر وخرج الصُّلب من الدُّبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن [الروض الفائق ص ٣٥] .

موقف الناس من الموت

اعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهوتها يغفل لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه ونفر منه . أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) [الجمعة] .

ثم الناس إما منهمك، وإما تائب مبتدئ . أو عارف منته : أما المنهمك : فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للأسف على دنياه ويشغل بمذمّته وهذا يزيده ذكره الموت من الله بعداً .

وأما التائب ، فإنه يكثر من ذكر الموت لينبث من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » [رواه البخاري ومسلم] .

وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغلاً بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه . فلا يُعدّ كارهاً للقاءه وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواء وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا .

وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقاءه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين .

كما روى عن حذيفة رضي الله عنه أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة ، فقر وشدة حاجة ، لا أفلح من ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من العيش فسهّل على الموت حتى ألقاك .

قال الإمام الذهبي : ابن آدم كأنك بالموت وقد فجأك وهجم وألحقك بمن سبقك ونقلت إلى بيت الوحدة والظلم وندمت على التفريط غاية الندم . فيا عجباً لعين تنام وطالبها لم ينم متى تحذر مما توعد ومتى تعزم فالخوف في قلبك إلى متى حسناتك تضمحل ؟ وسيئاتك تجدد . إلى متى لا يهولك زجر المواعظ وإن شدد ؟

إلى متى أنت بين الفتور والتواني تتردد ؟ متى تحذر يوماً فيه الجلود تنطق وتشهد ؟ متى تترك ما يفنى لما لا ينفد ؟ متى تكون في الليل قائماً إذا سجا ؟ أين الذين عاملوا مولاهم وانفردوا وقاموا في الدجى وركعوا وسجدوا وقدموا إلى بابهِ في الأسحار ووفدوا وصاموا هواجر النهار فصبروا واجتهدوا ؟ لقد ساروا وتخلفت وفاتك ما وجدوا وبقيت في أعقابهم وإن لم تلحق بعد يا من صحيفته بالذنوب قد جفت وموازينه بكثرة الذنوب قد خفت أما رأيت عرائس إلى اللحد قد زفت ؟ أما عاينت طور الأجسام في الأرحام ؟ أين الكاسرة الشجعان ؟ وأين المنعمون بالجوارى ؟ وأين من اعتاد سعة القصور ؟ حبس في القبور .

يا كثير السيئات غداً ترى عملك . يا هاتك الحرمان إلى متى تديم ذلك أما تعلم أن الموت في تبديد شملك . أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فعلك .

واعجباً لك من راحل تركت الزاد في غير رحلك . أين فطنتك وتدبير عقلك . أما بارزت بالقبيح فأين الحزن . أما علمت أن الحق يعلم السر والعلن ؟

ستعرف خبرك يوم ترحل عن الوطن . وستنتبه من رقادك ويزول هذا الوسن « الغفلة » واعجباً لنفس الموت موئلاً والقبر منزلاً واللحد مدخلها ثم يسود عملها :

﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴾ [النافقون: ١١] .

كم قاطع زمانه بالتسويق . بائع دينه بالحبّة والرغيف . مشتر للويل بتطفيف الطفيف . يتمنى العود إذا رأت نفسه ما يذهلها .

﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴾ .

كم مشغول بالقصور يعمرها لا يفكر في القبور ولا يذكرها يبيت الليالي في فكر

الدنيا ويسهرها يجمع الأموال إلى الأموال يثمرها وقع في شرك المنايا وهو لا يبصرها أن لدينا هذا آخر وآه لأخرى هذا أولها .

﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴾ .

آه لساعات شديدة الكربات فيها غمرات ليس بنوم ولا سبات تنقطع فيها الأفتدة باللوم على القوات وتبكي عين الأسف لما مضى من هنوات والمريض ملقى على فراش الحرقات آه من جبال حسرات يحملها .

﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴾ .

لقد صاح بك الصائح بأخذ غاد وسلب رائج . يكفى ما مضى من قبائح فأقبل اليوم هذه النصائح فإن المسكين من يهملها .

﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴾ .

انظر إلى المسيء العاصى الذى كان يتعلل بعسى ولعل ويرى جنده الأفل وحزبه الأفل وناصره الأذل فلا يدعو ولا يزدجر ولا يفكر ولا يعتبر ولا ينظر ولا يستبصر حتى إذا وقعت رايته وقامت قيامته وهجمت عليه منيته وأحاطت به خطيئته فأنكشف له الغطاء وتبدت له موارد الشقاء صاح واخيبتاه واثكل أماءه وسواء منقلباه . هيهات هيهات ندم والله حيث لا ينفعه الندم وأراد التثبيت بعد ما زالت به القدم فخر صريعاً لليدين والقم إلى حيث ألفت رحلها أم قشعم - مثل يضرب لمن لا ينتفع بالمواعظ .

إخوانى : نذيركم قد صدق والمجتهد قد سبق وقد مضى نهار العمر وبقي الشفق وآخر جرعة اللذة شرق . وصاحب الدنيا منها على فرق . رب غصن ناضر كسر إذا سبق . رب زرع قامت سوقه رماء الغرق . أين الرقيق ساقه سواق ما رفق . هذا وكلكم يدرى أين انطلق . أما رأيتم مضجعه فى القبر بالحدق . واعجبا لقلب المتفكر كيف ما احترق . أما شاهد تموه وقد تقطعت منه العلق وتمص بعد عريه جلاب الخوف والفرق . وخرس لسانه وقد طال ما نطق :

فما تزود مما كان يجمعه إلا حنوطاً غداة البين فى خرق
وغير نفخه أعوا يشب له وقل ذلك من زاد المنطلق

أيها المتيقظون وهم نائمون أتبون مالا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون كونوا
كيف شئتم فتعلمون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [المومن: ١٥] .

يا مقيمين سترحلون . يا مستقرن ما تتركون . يا غافلين عن الرحيل ستظعنون .
أراكم متوطنين تأمنون المنون . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

طول نهاركم تلعبون . وطول ليلكم ترقدون . والفرائض ما تؤدون وقد رضيتم
عن الغالى بالدون . لا تفعلوا ما تفعلون . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

أما الأموال فتجمعون والحق فيها ما تخرجون وأما الصلاة فتضيعون وإذا صليتم
تنفرون أترى هذا إلى كم يكون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

أين العتاة المتكبرون ؟ أين الفراعنة المتسلطون ؟ أين أهل الخيلاء المتكبرون ؟
قدروا أنكم صرتم لهم . أما تسمعون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

ما نفعتهم الحصون ولا رد المال المصون هبت زعزع الموت فكسرت الغصون
قدروا أنكم تزيدون عليهم ولا تنقصون ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ تقلبوا فى
اللذات فى فنون وأخرجهم البطر إلى جنون . فأتاهم ما هم عنه غافلون ﴿ كَمْ
تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان : ٢٥] . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

لو حصل لكم كل ما تحبون ونما جميع ما تؤتون ونلت من الأمانى ما تشتهون
أينفعكم حين ترحلون ؟ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾

إلى متى وحتى تنصحون وأنتم تكسبون الخطايا وتجترحون . أأمتم وأنتم
تسرحون ذئب هلاك فلا تبرحون ؟ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

فلا تفرحوا بما تفرحون فإنه لغيركم حين تطرحون وإياكم من يراكم تفرحون قد
خسرتم إلى الآن فما تبرحون . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ .

ويحكم الدنيا دار ابتلاء وفنون وقد زجركم عنها المفتون . وكم رأيتم من هالك
بها مفتون وكأنكم بكم قد حملتم على المنون . كم أدلكم على الجنة وتختارون
الآتون . البصرة ١٧٨/٢ .

كأنك بالعمر قد انقض و هجم عليك المرض وفات كل مراد وغرض وإذا بالتلف
قد عرض أخذاً : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ [ق: ٢٢] .

شخص البصر وسكن الصوت ولم يمكن التدارك للفوت ونزل بك ملك الموت .
قامت الروح وحازى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ .

عاجلت أشد الشدائد فيا عجباً مما تكابد بلغت الروح إلى التراقي ولم تعرف
الراقي من الساقى ولم تدر عند الرحيل ما تلاقى عياذاً الله عياذاً : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ
مِّنْ هَذَا ﴾ .

ثم درجوك فى الكفن وحملوك إلى العفن . على العيب القبيح والأفن وصرت
فى القبر جذاذاً . ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ .

تؤمل آمالا وموتك أقرب	ألا أيها المغرور مالك تلعب
سفينة الدنيا فإياك والعطب	وتعلم أن الحرص بحر مبعّد
عليك يقينا طعمه ليس يعذب	وتعلم أن الموت ينقضى مسرعاً
وأهمهم الشكلى تنوح وتندب	كأنك توصى واليتامى تراهم

كان بالبصرة عابد قد أجهده الخوف والوله وأسقمه البكاء وأنحله فلما حضرته
الوفاء جلس أهله ليكون حوله فقال لهم : أجلسونى فأجلسوه فأقبل عليهم وقال
لأبيه : يا أبت مالذى أبكاك ؟ قال : يا بنى ذكرت فقدك وانفرادى بعدك فالتفت إلى
أمه وقال : يا أماه ما الذى أبكاك ؟ قالت : تجرى مرارة ثكلك فالتفت إلى الزوجة
وقال : ما الذى أبكاك ؟ قالت : لقد برك وحاجتى لغيرك فالتفت إلى أولاده وقال :

ما الذى أباكم؟ قالوا لذل اليتيم والهوان بعدك فعند ذلك نظر إليهم وبكى . . . فقالوا له : ما يبكيك أنت ؟ قال : أبكى لأنى رأيت كلا منكم يبكى لنفسه لا لى أما فيكم من بكى لطول سفرى ؟ أما فيكم من بكى لما ألقاه من سوء الحساب ؟ أما فيكم من بكى لموقفى بين يدى رب الأرباب ؟ ثم سقط على وجهه فحركوه فإذا هو ميت .

سكرات الموت

يقول صاحب الإحياء رحمه الله :

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرد ما كان جديراً بأن يتنفس عليه عيشته ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهره وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداداه لا سيما وهو فى كل نفس بصده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك ولا تدرى متى يغشاك . وقال لقمان لابنه : يا بنى أمرٌ لا تدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك . والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه أسد فيضربه خمس ضربات لتكدر عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها .

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربته حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب السيف ونشر المناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المقاول المباشر نفس الروح؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه إنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتضاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهذه كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة .

أما العقل ، فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد

ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقة وصدره وقد تغير لونه وارتد حتى ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر فى داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتقلص الشفتان وتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الأثنيان إلى أعالي موضعهما وتخضر أنامله .

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقاً واحداً .
 . كان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً فببرد أولاً قدماء ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الخلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » ، [رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣)] .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التُّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ [النساء : ١٨] .

قال : إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته . ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم هون على سكرات الموت » .

والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الأنبياء والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين ادعوا لله تعالى أن يهون على هذه السكرة - يعنى الموت - فقد خفت الموت مخافة حتى أوقفنى خوفى من الموت على الموت .

وروى أن نفرأ من بنى إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض : لو دعوتم الله

تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسألونه ؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه السجود قد خرج من القبور فقال: يا قوم ما أردتم منى لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبى .

وقالت عائشة رضي الله عنها : لا أغبط أحد يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وآله .

وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول: إن لم تُقلوا تموتوا والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش .

وقال الأوزاعى : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره .

وقال شداد بن أوس : الموت أقطع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلى فى القدر ولو أن الميت رجع فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقى على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكّرات الموت وكربه ودرجته فى الجنة وإذا كان للكافر معروف لم يجزبه هون عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار .

وعن بعضهم : أنه كان يسأل كثيراً المرضى كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل له : فأنت كيف تجده ؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى يخرج من ثقب إبره .

عن عبيد الله بن خالد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « موت الفجأة أخذة أسف » . رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٣١) .

وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى: كيف وجدت الموت يا خليلى قال: كسفود جعل فى صوف رطب ثم جُذِب . فقال: أما إنا قد هونا عليك . وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : يا موسى كيف وجدت الموت قال: وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح

ولا ينجو فيطير .

وروى عنه أنه قال : وجدت نفسى كشاة حية تسلخ بيد القصاب عن عائشة رضي الله عنها قالت : أن رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول : « لا إله إلا الله إن للموت لسكرات » وفى رواية « اللهم عنى على سكرات الموت » [رواه أصحاب السنن سوى أبى داود بسند حسن] .

وفاطمة رضي الله عنها تقول : واكرباه لكربك يا أبتاه . وهو يقول « لا كرب على أبيك بعد اليوم » [أخرجه البخارى عن أنس] .

وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار : يا كعب حدثنا عن الموت فقال : نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل فى جوف رجل وأخذت كل شوكه بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقي . فهذه سكرت الموت على أولياء الله وأحبابه فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى .

* أخى :

فكأنك قد نزل بك الموت وشيكاً سريعاً فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلى الحشر إلى ربك فتوهم نفسك فى نزاع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه . وقد بدأ الملك يقبض روحك من قدمك فوجدت ألم جذبه من أسفل قدميك ثم تدارك الجذب واستحث النزاع وجذبت الروح من جميع بدنك فنشطت من أسفلك متصاعدة إلى أعلاك حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه وعمت آلام الموت جميع جسمك وقلبك وجل محزون مرتقب منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أو الرضا وقد علمت أنه لا محيص لك دون أن تسمع إحدى البشريتين من الملك الموكل بقبض روحك .

دواهي الموت ثلاث

الأولى : شدة النزاع كما ذكرناه .

الداهية الثانية : مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القلب . فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته . فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : هل تطيق ذلك ؟ قال بلى قال : فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فغشى على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه [أى يكفيه] .

وروى أبوهريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن داود عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان إذا خرج أعلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار فقالت : من أدخل هذا الرجل لثن جاء داود ليلقين منه عناء ؟ فجاء داود فرآه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنع مني الحجاب . فقال : فأنت والله أذن ملك الموت ولزم داود عليه السلام مكانه » . أخرجه أحمد (٤١٩ / ٢) وابن الدنيا في كتاب الموت .

فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفأها المطيعون فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزاع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها في منامه ليلة لتغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال ؟

وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها . فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان له بيت بتبعد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فدخل فإذا برجل في جوف البيت فقال : من أدخلك دارى ؟

فقال : أدخلنيها ربها . فقال : أنا ربها . فقال : أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك . فقال : هل أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت قال : هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم . فأعرض عنى فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال : يا ملك الموت . لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه (يكفيه) .

ومنه مشاهدة الملكين الحافظين . قال : وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يترأى له ملكاه الكاتبان عمله فإن كان مطيعاً قالوا له : جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرنا . وإن كان فاجراً قالوا له : لا جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل صالح أحضرنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيراً فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبداً .
فوالله يا أخى : إنها اللحظة الحاسمة فى حياة المؤمن والكافر .

إنها اللحظة التى يسمع فيها النداء الذى يبشره بالرحمة أو النداء الذى يتوعده بالعذاب .

ولك أن تتخيل أيها الحبيب أن ملك الموت قد دخل عليك الآن وسينادى عليك ويقول : « يا أيتها النفس الـ . . . » وأنت بين تلك الكربات وتلك الحشرات تسأل نفسك يا ترى بأى النداء سوف ينادى علىّ ؟ هل سيقول يا أيتها النفس المطمئنة أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ؟!

أم سينادى ويقول « يا أيتها النفس الخبيثة أخرجى إلى سخط الله وغضب » .

فإذا جاءك النداء الأول : « يا أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان » فذاك هو الفوز الذى لا فوز بعده وتلك هى البشرى التى لا تدانيها الدنيا بما عليها .

وأما إن جاءك النداء الثانى عياداً بالله « يا أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط

من الله وغضب « فتلك هي الحسرة التي لا حسرة تدانيها في هذه الدنيا . . . إنه الوعيد والعذاب الذي لا ينتهى أبداً .

ذُكر في بعض الأخبار أن الميت ينادى عليه إذا وضع على المغتسل : أين لسانك الفصيح ما أسكتك ؟ أين صوتك الشجي ما أخرسك ؟ أين ريحك العطر ما أنتنك ؟ أين حركاتك ما أسكنك ؟ أين أموالك الكثيرة ما أفقرك ؟ الويل لك إن كنت عاصياً والبشرى لك إن كنت طائعاً وتناديه الملائكة إذا وضع في القبر : يا عبد الله أنت تركت الدنيا أم الدنيا تركتك ؟ أنت جمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك ؟

عباد الله لا تغفلوا عن ذكر الموت . وتفكروا فيه قبل الفوت فوالله ما بين أحدكم وبين طول الأسف والندامة على ما قد سلف . إلا أن تنزل به المنية غدوة أو عشية . فعظ نفسك قبل حلول الرزية .

ولقد قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿ [المنافقون : ١٠] .

قيل : الأجل القريب عند كشف الغطاء . يقول العبد عند الموت : يا ملك الموت أخرني يوماً أعمل فيه صالحاً لنفسي . فيقول ملك الموت : فנית الأيام فلا يوم . فيقول : فנית الساعات فلا ساعة . فيقول : اتركني أتكلم فيقول أخرني ساعة . فيقول : فرغ كلامك فلا كلام . فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ يكظمه فتقطع الأوقات والأعمال ويبقى عدد الأنفاس ليشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحتد بصره فإذا كان في آخر نفس زهقت نفسه فيدركه ما سبقت له من شقاوة أو سعادة .

أما عن الداهية الثالثة : فهي مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة . فإنهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين : إما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولي الله بالجنة . ومن هنا كان خوف أرباب الآلباب .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » . فقلت يا نبي الله : أكرهية الموت ؟ فكلنا يكره الموت . قال : « ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه » . أخرجه مسلم .

أحوال السلف عند الاحتضار

أبو بكر الصديق :

لما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه قالت عائشة :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
فقال: ليس كذلك ولكن قولى: ﴿ وَجَاءَتْ سُكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ
تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩] ولذلك كان يقوله أبو بكر . أحمد فى الزهد ص ١٣٦ وابن سعد فى الطبقات
١٩٦/٣ .

عمر بن الخطاب :

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند الموت : ويلي وويل أُمى إن لم يرحمنى ربى .
ابن سعد ٣ / ٣٦٠ .

عثمان بن عفان :

ولما دخلوا على عثمان رضي الله عنه جعل يتمثل :
أرى الموت لا يبقى حزيناً ولا يدع لعاد ملاكاً فى البلاد ومرتقى
يبىب أهل الحصن والحصن مغلق ويأتى الجبال من شمارخها العلى
« التبصرة » .

على بن أبى طالب :

ولما جرح على بن أبى طالب رضي الله عنه جعل يقول :
شد حياز يمك للموت فإن الموت لا قيك
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك

الحيازيم والمفرد حيزوم : الأعضاء والأنسجة التي تشغل وسط الصدر ما بين
- ريتين . « البصرة » .

معاوية بن أبي سفيان:

ولما احتضر معاوية جعل يقول :

إن تناقش يكن نقاشك يا رب عذابا لا طوق لي بالعذاب

أو تجاوز فأنت رب عفو عن مسىء ذنوبه كالتراب

« البصرة » .

ولما حضرته الوفاة رحمته قال: أقعدوني . فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره
ثم بكى وقال : تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط؟ ألا كان هذا وغصن
الشباب نضريان ! وبكى حتى علا بكأؤه وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا
القلب القاسي اللهم أقل العثرة واغفر الذلة وعد بحلمك على من لم يرجُ غيرك ولم
يثق بأحد سواك . « قصص الصالحين » .

معاذ بن جبل :

ولما احتضر معاذ جعل يقول: أعوذ بالله من ليلة صباحها النار مرحبا بالموت زائر
مغب حبيب جاء على فاقة اللهم إني قد كنت وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أني
لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار = شقها = ولا لغرس الأشجار
ولكن لظماً للهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر .
« البصرة » .

أبو الدرداء رضي الله عنه :

لما احتضر أبو الدرداء جعل يقول : ألا رجل يعمل لمثل مصرعى هذا، ألا رجل
يعمل لمثل ساعتى هذه ، ألا رجل يعمل لمثل يومى هذا، وبكى فقالت له امرأته :
تبكى وقد صاحبت رسول الله ﷺ ؟ فقال : وما لى لا أبكى ولا أدري علام أهجم

من ذنوبى . «البصرة» .

أبو هريرة رضي الله عنه :

لما احتضر أبو هريرة بكى . ف قيل له : وما يبكيك ؟ فقال : بُعد المفازة وقلة الزاد وعقبة كثود المهبط منها إلى الجنة أو إلى النار . «البصرة» .

حذيفة بن اليمان :

قيل لحذيفة فى مرضه : ما تشتهى ؟ قال الجنة : قيل : فما تشكى ؟ قال : الذنوب . ولما حضر رضي الله عنه قال : غُطَّ يا موت غَطِّكَ وشدَّ يا موت شدَّكَ أبى قلبى إلا حبك جاء رخاء العيش بعدك حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم أليس ورائى ما أعلم الحمد لله الذى سبق بى الفتنة قادها وعلوجها . «من قصص الصالحين» .

سلمان الفارسى رضي الله عنه :

ولما حضرت سلمان الوفاة قال لصاحبة منزله : هَلُمِّى خبيتى - أى الشئ الذى خبأته - فجاءته بِصُرة من مسك فقال لها : إيتينى بقدح فيه ماء فجاءت بقدح فيه ماء فطرح المسك فيه ثم أماته أى خلطه ثم قال لها : انضحيه حولى . فإنه يحضرنى خلق من خلق الله عز وجل يجدون الريح ولا يأكلون الطعام . . . ففعلت ثم قال لها : أجيئى - أى ردى على الباب - على الباب ثم انزلى ففعلت ثم مكثت قليلا ، ثم سعدت فإذا هو قد مات رحمه الله عليه ورضوانه . «قصص الصالحين» .

سعد بن أبى وقاص :

لما حضرت الوفاة سعداً رضي الله عنه دعا بخلَّق جُبَّة أى قديمة بالية له من صوف فقال : كفنُونى فيها فإنى لقيت المشركين فيها يوم بدر وإنما كنت أخبأتها لهذا اليوم .

الحسن بن على فراش الموت :

قال رقبة بن مصقلة : لما احتضر الحسن بن على قال : أخرجوا فراشى إلى صحن الدار . قال : فرفع رأسه إلى السماء ثم قال :

اللهم إني أحتسب نفسي عندك فإنها أعز الأنفس على * أخرجه ابن أبي الدنيا وسنده صحيح .

وقال رقة بن مصقلة : لما حضر الحسن بن علي قال : أخرجوني إلى الصحراء لعلني أنظر في ملكوت السماء - يعنى الآيات - فلما أخرج به قال : [اللهم إني أحتسبت نفسي عندك فإنها أعز الأنفس على] . فكان مما صنع به الله عز وجل أنه احتسب نفسه [أخرجه أبو نعيم (٣٨/٢) في الحلية بسند صحيح] .

أبو ذر الغفاري على فراش الموت :

عن إبراهيم الأستر عن أبيه عن أم ذر قالت : لما حضر أبا ذر الوفاة بكيت فقال : ما يبكيك ؟ فقلت : ما لى لا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ولا يدان لى بنعشك وليس معنا ثوب يسعك كفنا ولا لك . فقال لا تبكى وأبشري فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يموت بين امرأتين مسلمين ولدان أو ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً » . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين » . وليس من أولئك أحد إلا وقد مات فى قرية أو جماعة وإنى أنا الذى أموت بالفلاة والله ما كذبت ولا كذبت فأبصرى الطريق . قالت : فقلت : إنى وقد ذهب الحاج وتقطعت الطرق ؟ فقال انظرى . فكنت أشتد إلى الكتيب فأقوم عليه ثم أرجع إليه فأمرضه قالت : فينما أنا كذلك إذ أنا برجال على رواحلهم كأنهم الرخم - الرخم : جمع رخمة وهو طائر يقع على شكل النسر خلقة إلا أنه مبقع بسواد وبياض - فأخبت - تخب : تسرع - بهم فأسرعوا إلى ووضعوا السياط فى نحورها ، يستبقون إلى فقالوا : مالك يا أمة الله ؟ فقلت : امرؤ من المسلمين يكفونه يموت . قالوا ومن هو ؟ قلت : أبو ذر قالوا : صاحب رسول الله ﷺ ؟ قلت : نعم . قالت : فقدوه بأبائهم وأمهاتهم وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه فسلموا عليه فرحب بهم وقال : أبشروا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يموت بين امرأتين من المسلمين ولدان أو

ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً .

وسمعه يقول: لنفر أنا فيهم: « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين ». وليس من أولئك نفر أحد إلا وقد هلك في قرية أو جماعة وأنا الذى أموت بفلاة من الأرض والله ما كذبت والله ما كذبت وإنه لو عندى ثوباً يعنى كفنأ لم أكفن إلا فى ثوب هو لى أو لها وإنى أنشدكم الله لا يكفى رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريدأ أو نقيبا قال: فليس من القوم أحد إلا وقد قارف من ذلك شيئاً إلا فنى من الأنصار . فقال: أنا أكفك فى ردائى هذا وفى ثوبين فى عيبتى من غزل أُمى . قال: أنت فكفى . فكفنه الأنصارى ودفنه فى النفر الذين معه منهم حجر بن عدى الأدبر ومالك بن الأشتر فى نفر كلهم يمان . (حديث صحيح بطرقه : أخرجه ابن سعد فى طبقاته وأحمد وابن عبد البر وأبو نعيم فى الحلية وابن الأثير فى أسد الغابة) .

أبو موسى الأشعرى على فراش الموت :

قال الضحّاك بن عبد الرحمن : دعا أبو موسى الأشعرى فتياه حين حضرته الوفاة فقال: اذهبوا فاحفروا وأوسعوا وأعمقوا . فجاءوا فقالوا: قد حفرنا وأوسعنا وأعمقنا . فقال: والله إنها لإحدى المنزلتين : إما ليوسعن على قبرى حتى يكون كل زاوية منه أربعين ذراعاً ثم ليفتحن لى باب إلى الجنة فلا نظرن إلى أزواجى ومنازلى وما أعد الله عز وجل لى من الكرامة ثم ليصبنى من ريحها وروحها حتى أبعث ولئن كانت الأخرى - ونعوذ بالله منها - ليضيّقن علىّ قبرى حتى أكون فى أضيق من القناة فى الزُّج ثم ليفتحن لى باب من أبواب جهنم فلا نظرن إلى سلاسلى وأغلالى وقرنائى ثم ليصبينى من سمومها وحميمها حتى أبعث . [صفة الصفوة (١ / ٥٦٠ - ٥٦١) لابن الجوزى] .

وعن أبى بردة رحمه الله - قال : لما حضرت أبا موسى الوفاة قال: يا بنى اذكروا صاحب الرغبة قال: كان يتعبد فى صومعته أراه قال سبعين سنة لا ينزل إلا فى يوم واحد قال: فشبهه أو شبه الشيطان فى عينه امرأة قال: فكان معها سبعة أيام وسبع ليال . قال: ثم كشف عن الرجل غطاؤه فخرج تائباً فكان كلما حظاً حظوة صلى

يسجد فأواه الليل إلى وكان عليه اثنا عشر مسكينا فأدركه الإعياء فرمى بنفسه بين
رجلين منهم وكان ثم راهب يبعث إليهم كل ليلة بأرغفة فيعطى كل إنسان رغيفاً .
فجاء صاحب الرغيف فأعطى كل إنسان رغيفاً فقال المتروك لصاحب الرغيف .

الرغيف : مالك لم تعطني رغيفي ؟

قال : أتراني أمسكه عنك ؟ والله لا أعطيك الليلة شيئاً .

فعمد النائب إلى الرغيف الذي دفعه إليه فدفعه إلى الرجل الذي ترك فأصبح
نائب ميتاً .

قال : فوزنت السبعون سنة بالسبع ليالي فرجحت الليالي فوزن الرغيف بالسبع
ليالي فرجح الرغيف .

فقال أبو موسى : يا بني . . . اذكروا صاحب الرغيف . (المرجع السابق) .

عمرو بن العاص رضي الله عنه :

لما حضرت عمرو بن العاص رضي الله عنه الوفاة ذرفت عيناه فبكى فقال له ابنه عبد
الله : يا أبتاه ما كنت أخشى أن ينزل بك من أمر الله عز وجل إلا صبرت عليه
فقال عمرو : يا بني . . . إنه نزل لأبيك خصال ثلاث : أما أولهن : فانقطع عمله .
وأما الثانية : فهول المطلع . وأما الثالثة : ففراق الأحبة وهي أيسرهن .

ثم قال : اللهم إنك أمرت فتوانيت ونهيت فعصيت اللهم ومن شيمتك العفو
والتجاوز . [خبر صحيح : أخرجه أحمد (١٩٩/٤ - ٢٠٠) في المسند والسير (٧٥/٣) للذهبي] .

وعن عبد الله بن عمرو أن أباه أوصاه : إذا مت فاغسلني غسلة بالماء ثم جففني
في ثوب ثم اغسلني الثانية بماء قراح ثم جففني ثم اغسلني الثالثة بماء فيه كافور ثم
جففني وألبسني الثياب ثم إذا حملتني على السرير فامش بي مشياً بين المشيتين وكن
خلف الجنائزة فإن مقدمها للملائكة وخلفها لبنى آدم فإذا أنت وضعتني في القبر فسنّ
على التراب سناً . [سنن : ص ١] .

ثم قال: اللهم إنك أمرتنا فأضعنا ونهيتنا فركبنا فلا برىء فأعتذر ولا عزيز فأنتصر ولكن لا إله إلا الله وما زال يقولها حتى مات . [أخرجه ابن سعد (٢٦٠ / ٤)] .

مالك بن دينار :

قال حزم القطعي رحمه الله : دخلنا على مالك بن دينار رحمه الله - وهو يكيد بنفسه [يعنى يحتضر - . فرفع طرفه ثم قال: اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء لبطن ولا فرج وقال ابن مرزوق : بلغنى أن مالك بن دينار دخل المقابر ذات يوم فإذا رجل يدفن فجاء حتى وقف على القبر فجعل ينظر إلى الرجل وهو يدفن فجعل يقول : مالك . غداً هكذا يصير وليس له شيء يتوسده فى قبره فلم يزل يقول: غدا مالك هكذا يصير حتى خر مغشياً عليه فى جوف القبر فحملوه فانطلقوا به إلى منزله مغشياً عليه . [أخرجه ابن الجوزى (٢٨٠ / ٣) فى صفة الصفوة] .

وقال أبو عيسى : دخلنا على مالك بن دينار عند الموت فجعل يقول: لمثل هذا اليوم كان دؤوب أبى يحيى (المرجع السابق ص ٢٨٨ / ٣) .

وقال عمارة بن زازان : إن مالك بن دينار لما حضره الموت قال: لولا أنى أكره أن أصنع شيئاً لم يصنعه أحد كان قبلى لأوصيت أهلى إذا أنا مت أن يقيدونى وأن يجمعوا يدى إلى عنقى فينطلقوا بى على تلك الحال حتى أدفن كما يصنع بالعبد الأبق . (المرجع السابق) .

وكان وفاة مالك بن دينار فى سنة ثلاثين ومائة . رحمه الله تعالى .

وقال سلام بن مسكين - رحمه الله : دخلت على مالك بن دينار فى مرضه الذى مات فيه فإذا البيت فيه سرير أثل مرمول بشريط وعليه قطعة بورى - حصير - وإذا تحت رأسه قطعة كساء وإذا ركوة فرفع رأسه فأخرج من تحت رأسه رغيفين يابسين . فقعد يكسر الرغيفين فى الماء حتى إذا ظن أن الخبز قد ابتل .

قال : ناولنى الدوخلة - المخلاة - فإذا دوخلة معلقة يابسة فوضعتها فأخرج منها صرة فيها ملح وقال لى : ادن فقلت : يا أبا يحيى لا أشتهى . فقال :

قال : هيهات . . . هيهات . . . أنت ممن غُدّي في الماء العذب فلا تصير في الماء
-نح . [أخرجه أبو نعيم (٣٦٩/٢) في الحلية وسنده حسن] .

نبخاري على فراش الموت :

عن عبد القدوس السمرقندي يقول : جاء محمد بن إسماعيل إلى خرتنك (قرية)
على فرسخين من سمرقند وكان له بها أقرباء فنزل عندهم فسمعت ليلة يدعو وقد فرغ
من صلاة الليل : اللهم إنه قد ضاقت على الأرض بما رحبت فاقبضني إليك فما تم
لشهر حتى مات وقبر بخرتنك (وهي قرية من قرى سمرقند) [أخرجه الخطيب ٣٤/٢] في
تاريخ بغداد والمزى (١١١٢) في تهذيب الكمال . وابن حجر ص ٤٩٤ في مقدمة الفتح] .

وعن محمد بن أبي حاتم قال : سمعت أبا منصور غالب بن جبريل وهو الذي
نزل عليه أبو عبد الله يقول : إنه أقام عندنا أياماً فمرض واشتد به المرض حتى وجه
رسولاً إلى مدينة سمرقند في إخراج محمد فلما وافى تهيأ للركوب فلبس خفيه
وتعمم فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها وأنا آخذ بعضده ورجل آخذ معي
يقوده إلى الدابة ليركبها فقال رحمه الله : أرسلوني فقد ضعفت فدعا بدعوات ثم
اضطجع فقضى - رحمه الله - فسأل منه العرق شيء لا يوصف فما سكن منه العرق
إلى أن أدرجناه في ثيابه وكان فيما قال لنا وأوصى إلينا أن كفنوني في ثلاثة أثواب
بيض ليس فيها قميص ولا عمامة ففعلنا ذلك .

فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة غالية أطيب من المسك فدام ذلك أياماً ثم
علت سوارى بيض في السماء مستطيلة بحذاء قبره فجعل الناس يختلفون ويتعجبون
وأما التراب فإنهم كانوا يرفعون عن القبر حتى ظهر القبر ولم تكن نقدر على حفظ
القبر بالحراس وغلبنا على أنفسنا فنصبنا على القبر خشباً مشبكاً لم يكن أحد يقدر
على الوصول إلى القبر فكانوا يرفعون ما حول القبر من التراب ولم يكونوا
يخلصون إلى القبر . . . وأما ريح الطيب فإنه تداوم أياماً كثيرة حتى تحدث أهل
البلدة وتعجبوا من ذلك وظهر عند مخالفيه أمره بعد وفاته وخرج بعض مخالفيه إلى
قبره وأظهروا التوبة والندامة مما كانوا شرعوا فيه من مذموم المذهب .

وعن محمد بن أبي حاتم قال : ولم يعش أبو منصور غالب بن جبريل بعده إلا القليل وأوصى أن يدفن إلى جنبه .

عن عبد الواحد بن آدم الطواويسى يقول : رأيت النبی ﷺ فى النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف فى موضع فسلمت عليه فرد علىّ السلام فقلت : ما وقوفك يا رسول الله ؟ قال : أنتظر محمد بن إسماعيل البخارى فلما كان بعد أيام بلغنى موته . فنظرت فإذا قد مات فى الساعة التى رأيت النبی ﷺ فيها . [أورده الذمى (١٢/٤٦٧ ، ٤٦٨) والسبكي (٢/٢٣٣) فى طبقاته] .

وعن مهيب بن سليم الكرمينى يقول : مات عندنا البخارى ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين وقد بلغ اثنين وستين سنة وكان فى بيت وحده فوجدناه لما أصبح وهو ميت عن الحسن بن الحسين البزاز البخارى يقول : توفى البخارى ليلة السبت ليلة الفطر عند صلاة العشاء ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر سنة ست وخمسين ومائتين وعاش اثنين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوماً . [صفة الصفوة (٤/١٧١) لابن الجوزى] .

* مع عبد الملك بن مروان :

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسان بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة فقال عبد الملك : لَيْتَنِي كُنْتُ غَسَالاً أَكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدَيَّ يوماً بيوم ولم آلِ من أمر الدنيا شيئاً : فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه وإذا حضرنا الموت لم نتمنَّ ما هم فيه .

وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجددك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدنى كما قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٩٤) [الانعام]

* مع عمر بن عبد العزيز :

قيل له لما حضره الموت : اعهد « يعنى أوصنا » يا أمير المؤمنين فقال : أحذرکم مثل مصرعى هذا فإنه لا بد لكم منه .

وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال : أرى نرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت أيضاً على من لم يُسق السم . قال الطبيب ، هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى . قال : فتعالج يا أمير المؤمنين فإنى أخاف أن تذهب نفسك . فقال : ربي خير مذهب إليه والله لو علمت أن شفائى عند شحمة أذننى ما رفعت يدى إلى أذننى فتناولته . . اللهم خِرْ لعمر فى لقائك فلم يلبث إلا أياماً حتى مات .

وقيل : لما حضرته الوفاة بكى فقبل له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلاً . فبكى ثم قال : ألسنت أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق ؟ فوالله لو عدلت فيهم لحفت على نفسى أن لا تقوم بحجتها بين يدى الله إلا أن يلقتها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا ، وفاضت عيناه فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات .

ولما قرب وقت موته قال : أجلسونى . فأجلسوه . فقال : أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت - ثلاث مرات - ولكن لا إله إلا الله .

ثم رفع رأسه فأحد النظر فقبل له فى ذلك فقال : إنى لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله (البداية والنهاية ج ٤ ص ١١١) .

* مع هارون الرشيد :

حكى عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴾ (٢٨) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿ (٢٩) [الحاقه] .

* مع المأمون:

فرش المأمون رماداً واضطجع عليه وكان يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

* مع الحجاج بن يوسف الثقفى :

قال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لى فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لى فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال : أقالها ؟ قيل : نعم قال : عسى .

* مع المعتصم :

قال المعتصم عند موته : لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فعلت .

* مع إبراهيم النخعى :

لما حضر إبراهيم النخعى الموت بكى فقليل له : ما يبكيك ؟ قال : أنتظر من الله رسولا يبشرنى بالجنة أو النار .

* مع عامر بن عبد القيس :

لما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقليل له : ما يبكيك ؟ قال : أما أبكى جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكن أبكى على ما يفوتنى من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل فى الشتاء .

* مع ابن المنكدر :

لما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقليل له : ما يبكيك ؟ فقال : والله ما أبكى لذنب أعلم أنى أتيته ولكن أخاف أنى أتيت شيئاً حسبه هيناً وهو عند الله عظيم .

* الفضيل بن عياض :

لما حضرت فضيلاً الوفاة غشى عليه ثم فتح عينيه وقال : وا بُعدَ سفراه وا قلة زاداه .

✽ عبد الله بن المبارك :

فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة . وضحك وقال : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ نَاعْمُونَ ﴾ [الصافات] .

وقيل : لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر [مولاة] : اجعل رأسى على تراب فبكى نصر . فقال له : ما يبكيك؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً . قال : اسكت فإنى سألت الله تعالى أن يحيينى حياة لأغنياء وأن يميتنى موت الفقراء . ثم قال له : لَقِّنْى ولا تعد على ما لم أتكلم بكلام ثان .

وبكى بعضهم عند الموت فقليل له : ما يبكيك؟ فقال : آية فى كتاب الله تعالى قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة] .

الإمام الشافعى :

دخل المزنى على الشافعى رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوء عملى ملاقياً ولكأس المنية شارباً وعلى الله تعالى وارداً ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها . ثم أنشأ يقول :

ولما فشى قلبى وضاعت مذاهبى	جعلت رجائى نحو عفوك سلماً
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته	بعفوك ربى كان عفوك أعظماً
فما زالت ذا عفو عن الذنب لم تزل	تجود وتعفو منّة وتكرما
ولولاك لم يغو إبليس عابداً	فكيف وقد أغوى صفيك آدمَا

أبو زرعة الرازى على فراش الموت :

عن محمد بن مسلم بن وارة قال: رأيت أبا زرعة فى المنام فقلت له ما حالك يا أبا زرعة قال أحمد الله على أحوالى كلها إني حضرت فوقفت بين يدى الله تعالى فقال : يا عبيد الله لم تذرعت القول فى عبادى ؟ قلت : يا رب إنهم حاولوا دينك . قال: صدقت . ثم أتى بظاهر الخلقانى فاستعديت عليه إلى ربى تعالى فضرب الحد مائة ثم أمر به إلى الحبس ثم قال: ألحقوا عبيد الله بأصحابى : أبى عبد الله وأبى عبد الله وأبى عبد الله : سفيان الثوري . ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل . أخرجه الخطيب (٣٣٦/١٠) فى تاريخ بغداد وأورده الذهبى (١٣/٧٦-٨٥) فى السير .

عن ابن وارة قال: حضرت أنا وأبو حاتم عند وفاة أبى زرعة فقلنا: كيف تلقن مثل أبى زرعة ؟ فقلت: حدثنا أبو عاصم . حدثنا عبد الحميد بن جعفر وقال أبو حاتم ، حدثنا بNDAR فى آخرين حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميد ففتح عينيه وقال: حدثنا بNDAR . حدثنا أبو عاصم أخبرنا عبد الحميد حدثنا صالح بن أبى عريب عن كثير بن مرة عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله » وخرج روحه معه .

وفى رواية أخرى : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة » .

[أورده الذهبى (١٣/٧٦ - ٧٧ - ٨٥) فى السير] .

إن الغريب غريب اللحد والكفن
ولا بكاء ولا خوف ولا حزن
وقسمتى لم تزل والموت يطلبنى
وقد تماديت فى ذنبى ويسترنى
على المعاصى وعين الله تنظرنى
يا حسرة بقيت فى القلب تقتلنى
لو كنت تعلم ما بى كنت تعذرنى
وأقطع الدهر بالتذكار والحزن
فهل عسى عبرة منها تُخلصنى
على الفراس وأيديهم تقلبنى
ولم أر من طبيب اليوم ينفعنى
من كل عرق بلا رفق ولا هون
وصار فى الخلق مرأ حين غرغرنى
بعد الإياس وجدوا فى شرا كفى
إلى المغسل يأتينى يغسلنى
حرّاً أديبا أريباً عارفاً فطنى
من الثياب وأعرانى وأفردنى
وصار فوقى خريز الماء ينظفنى
غسلاً ثلاثاً ونادى القوم بالكفى
وصار زادى حنوطاً حين حنطنى
خلف الإمام فصلى ثم ودعنى
ولا سجود لعل الله يرحمنى
وأنزلوا واحداً منهم يلحدنى
وأسبل الدمع من عينيه أغرقنى

ليس الغريب غرب الشام واليمن
تمر ساعات أيامى بلا ندم
سفري بعيد وزادى لا يبلغنى
ما أحكم الله عنى حيث أمهلنى
أنا الذى أغلق الأبواب مجتهداً
يا زلة كتبت يا غفلة ذهبت
دع عنك عدلى يا من كان يعدلنى
دعنى أنوح على نفسى وأندبها
دعنى أسح دموعاً انقطاع لها
كأننى بين تلك الأهل منطرحاً
وقد أتوا بطبيب كى يعالجنى
واشتد نزعى وصار الموت يجذبها
واستخرج الروح منى فى تغرغرها
وغمضونى وراح الكل وانصرفوا
وقام من كان أولى الناس فى عجل
وقال يا قوم نبغى غاسلاً حذقاً
فجاءنى رجل منهم فجردنى
وأطرحونى على الألواح منفرداً
وأسكب الماء من فوقى وغسلنى
والبسونى ثياباً لا كمام لها
وقدمونى إلى المحراب وانصرفوا
صلّوا على صلاة لا ركوع لها
وأنزلونى فى قبرى على مهل
وكشف الثوب عن وجهى لينظرنى

فقام محترماً بالعزم مشتملاً
وقالوا هلوا عليه التراب واغتنموا
فى ظلمة القبر لا أم هنا ولا
وأودعوني ولجوا فى سؤالهموا
وهالنى صورة فى العين إذ نظرت
من منكر ونكير ما أقول لهم
فامنن على بعفو منك يا أملئ
تقاسم الأهل مالى بعد ما انصرفوا
فلا تغرنك الدنيا وزينتها
وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها
خذ القناعة من دنياك وارض بها
يا نفس كفى عن العصيان واكتسبى

وصف اللّين من فوقى وفارقنى
حسن الثواب من الرحمن ذى المن
أب شفيق ولا أخ يؤنسنى
ما لى سواك إلهى من يخلصنى
من هول مطلع ما قد كان أدهشنى
إذ هالنى منهما ما كان أفزعنى
فإننى موثق بالذنب مرتهن
وصار وزرى على ظهرى فأثقلنى
وانظر إلى فعلها فى الأهل والوطن
هل راح منها بغيز الزاد والكفن
لو لم يكن لك إلا راحة البدن
فعلاً جميلاً لعل الله يرحمنى

حديث البراء بن عازب في قبض روح المؤمن والكافر

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من أنصار فانتبهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ مُستقبل القبلة وجلسنا حوله وكان على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت في الأرض فجعل ينظر إلى سماء وينظر إلى الأرض وجعل يرفع بصره ويخفضه ثلاثاً . فقال: « استعيذوا بالله من عذاب القبر » . مرتين أو ثلاثاً . ثم قال: « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر » ثلاثاً . ثم قال: « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط ^(١) من حنوط الجنة . حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفي رواية: المطمئنة) . اخرجي اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيء السماء . فيأخذها (وفي رواية : حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبَلهم) فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (٢١) [الانعام] . ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجُدت على وجه الأرض . قال: فيصعدون بها فلا يمرون يعني : بها على ملاء من الملائكة . إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدنيا . حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿ ٢٠ ﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿ ٢١ ﴾ [المطففين] . فيكتب كتابه

(١) الحنوط : ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة .

فى عّلين ثم يقال : أعيدوه إلى الأرض فإننى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : فيرد إلى الأرض وتعاد روحه فى جسده . قال : فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه مدبرين فيأتيه ملكان شديدان الانتهاز فينهرانه ويجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول ربى الله . فيقولان له : ما دينك ؟ من نبيك ؟ . وهى آخر فتنة تعرض على المؤمن فذلك حين يقول الله عز وجل : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم : ٢٧] . فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ونبى محمد ﷺ . فينادى مناد فى السماء : أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة والبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره قال : ويأتيه (وفى رواية : يمثّل له) رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذى يسرك أبشر برضوان الله وجنات فيها نعيم مقيم هذا يومك الذى كنت توعّد . فيقول له : وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فوجهك الوجه يجرى بالخير فيقول : أنا عمّلك الصالح فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً فى إطاعة الله بطيئاً فى معصية الله فجزاه الله خيراً ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقال : هذا منزلك لو عصيت الله أبدلك الله به هذا فإذا رأى ما فى الجنة قال : رب عجل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلى ومالى فيقال له : أسكن .

قال : وإن العبد الكافر (وفى رواية : الفاجر) إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة . نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد سود الوجوه معهم المسوح (١) من النار فيجلسون منه مد البصر ثم يجرى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه . فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب . قال فتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول فتقطع معها

(١) المسوح : جمع المسح وهو كساء غليظ من الصوف أو الشعر . .

نعروق والعصب فيلغنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء وتغلق أبواب السماء . ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفه عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ربح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح به فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (١) [الاعراف : ٤٠] .

فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى ثم يقال : أعيدوا عبدى إلى الأرض فلانى وعدتهم أتى منها خلقهم ومنها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فتطرح روحه من السماء طرْحاً حتى تقع فى جسده ثم قرأ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج [. فتعاد روحه فى جسده . قال : فإنه لسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه ويأتيه ملكان شديدا الانتهاز فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ها هاه . هى كلمة تقال فى الضحك وفى الإيعاد وقد تقال للتوجع وهو أليق بمعنى الحديث والله أعلم لا أدري فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ها هاه لا أدري . فيقولان : فما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فلا يهتدى لاسمه فيقال : محمد . فيقولك ها هاه لا أدري سمعت الناس يقولون ذلك . قال : فيقال : لا دريت ولا تلوت . فينادى مناد من السماء أن كذب . فافرشوا له من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلَاعه ، ويأتيه . (وفى رواية : ويمثل له) رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن

(١) الخياط : أى ثقب إبرة .

الريح . فيقول : أبشر بالذى يسوؤك . هذا يومك الذى كنت توعد فيقول : وأنت فبشرك الله بالشر من أنت ؟ فوجهك الوجه يجىء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً إلى معصية الله فجزاك الله شراً ثم يُقَيِّضُ له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً فيضربه ضربة حتى يصير بها تراباً ثم يعيده الله كما كان . فيضربه ضربة أخرى فصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فراش من النار .

أين تستقر الأرواح بعد الموت

اختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة والراجع في ذلك أن لأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت فمنها أرواح في أعلا عليين في ملأ الأعلى وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهم متفاوتون في منازلهم أعظم تفاوت كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم .

كما روى عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: « إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة تحت العرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعه فقال: هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا: أى شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات . فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن تُريد أرواحنا في أجسادنا حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل في سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أنه ليس لهم حاجة تركوا » .

رواه مسلم والترمذى

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمار الجنة » . [رواه الترمذى صحيح الجامع [١٥٥٥] السلسلة الصحيحة [٩٩٥] .

بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخوله الجنة لدين له أو غيره كما في المسند من عبد الله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما لى إن قتلت في سبيل الله ؟ قال: « الجنة : فلما ولى قال: إلا الدين سارنى به جبريل أنفا » . ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة ومنهم من يكون محبوساً في قبره كحديث صاحب الشملة التى غلها ثم قتل . فقال النبي ﷺ: « والذى نفسى بيده إن الشملة التى غلها لتشتعل عليه ناراً في قبره » . رواه البخارى ومسلم .

ومنهم من يكون مقره باب الجنة كما فى حديث ابن عباس: « الشهداء على بارقة نهر باب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة غدواً وعشيا » .
[رواه الإمام أحمد والطبرانى . صحيح الجامع [٣٧٤٢] .

وهذا بخلاف جعفر بن أبى طالب . حيث أبدله الله من يديه بجناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء . فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ : [دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها فإذا جعفر يطير مع الملائكة وإذا حمزة متكئ على سريرة] . رواه الطبرانى . صحيح الجامع [٣٣٥٨] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « رأيت جعفر بن أبى طالب ملكا يطير فى الجنة مع الملائكة بجناحين » [رواه الترمذى والحاكم . صحيح الجامع (٣٤٥٩) .

ومنهم من يكون محبوساً فى الأرض لم تعلوا روحه إلى الملائكة الأعلى فإنها كانت روحاً سفلية . ومنها أرواح فى تنور الزناة والزواني وأرواح فى نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة .

فعن سَمُرَة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ يعنى مما يكثر أن يقول لأصحابه: « هل رأى أحد منكم من رؤيا ؟ » قال: فيقص عليه ما شاء الله أن يقص . وإنه قال لنا ذات غداة : [إنه أتانى الليلة آتيان وإنهما ابتعثانى وإنهما قالَا لى: انطلق: وإنى انطلقت معهما وإنا آتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ ^(١) رأسه فيتدهده ^(٢) الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثلما فعل به المرة الأولى] . قال: [قلت لهما : سبحان الله ما هذا ؟ قالَا لى : انطلق . انطلق . فانطلقنا . فأتينا على رجل مستلق لقفاه . وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه فيشرشر ^(٣) شدة إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه . قال: وربما قال أو رجاء - فيشق » قال: « ثم يتحول إلى الجانب

(٢) يتدهده : يدفعه من علو إلى أسفل .

(١) يثلغ : أى يشدخه .

(٣) يشرشر : أى يقطعه شفاً .

لآخر فيفعل به مثلما فعل بالجانب الأول . فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثلما فعل المرة الأولى . قال : « قلت : سبحان الله . ما هذا ؟ » قال : « قال : انطلق . فانطلقنا . فأتينا على مثل لتنور وأحسب أنه كان يقول : فإذا فيه لغط وأصوات » . قال : « فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيتهم لهب من أسفل منهم . فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا » (١) .

قال : « قلت لهما : ما هؤلاء ؟ » قال : « قال : انطلق . انطلقنا » . فأتينا على نهر حسبب أنه كان يقول : « أحمر مثل الدم » . وإذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فغفر له فاه فألقمه حجرا فينطلق . يسبح ثم يرجع إليه كما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجرا . قال : « قلت لهما : ما هذان ؟ » قال : « قال : انطلق انطلق » . قال : « فانطلقنا فأتينا على رجل كربه المرأة . كأكره ما أنت راء رجلاً مرآه . وإذا عنده نار يحشها (٢) ويسعى حولها » . قال : « قلت لهما : ما هذا ؟ » . قال : « قال : انطلق انطلق » . فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة (٣) فيها من كل لون ربيع . وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء . وإذا حول الرجل أكثر من ولدان رأيتهم قط » . قال : « قلت لهما : ما هذا . ما هؤلاء ؟ » . قال : « قال : انطلق انطلق » . فانطلقنا فانتبهنا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن » قال : « قال : ارق . فارتقيت فيها » . قال : « فارتقينا فيها » . فانتبهنا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة . فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا . فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء واطر كأقبح ما أنت راء » . قال : « قال لهم : اذهبوا ففعلوا » . قال : « وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض من البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة » . قال :

(١) ضوضوا : رفعوا أصواتهم مختلفة . (٢) يحشها : يوقدها .

(٣) معتمة : غطاها الخصب . فوصفها بشدة الخضرة . تقول نخلة عتمة طويلة .

«قالا لى : هذه جنة عدن . وهذاك منزلك » قال : فسمّا بصرى صعداً . فإذا قصر مثل الربابة (١) البيضاء » قال : « قالّا لى : هذاك منزلك » قال : قلت لهما : بارك الله فيكما ذارنى فأدخله قالّا : أما الآن فلا وأنت داخله . قال : « قلت لهما : فإنّى قد رأيت منذ الليلة عجباً . فما هذا الذى رأيت ؟ » قال : « قالّا لى : أما إنا سنخبرك :

أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر : فإنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة .

وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرجال والنساء العراة الذين فى مثل بناء التنور فهم الزناة والزوانى .

وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجر فإنه أكل الربا وأما الرجل الكريه المرأة الذى عنده النار يحشها ويسعى حولها . فإنه مالك خازن جهنم .

وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإنه إبراهيم عليه السلام وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة » .

قال : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله . وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وأولاد المشركين . وأما القوم الذين كانوا شطراً منهم حسن وشطراً قبيح فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فجاوز الله عنهم » . رواه البخارى ومسلم .

ومنها أرواح تكون فى القبر كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال : « إنها ليعذبان وما يعذبان فى كبير ثم قال : بلى إنه كبير أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » رواه البخارى ومسلم .

* وخلاصة الأمر : أنه ليس للأرواح سيعدها وشقيها مستقر واحد بل روح فى أعلى عليين وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض .

قال ابن القيم رحمه الله فى التوبة :

فالشأن للأرواح بعد فراقها	أبدانها والله أعظم شأن
إما عذاب أو نعيم دائم	قد نعمت بالروح والريحان
وتصير طيراً سارحاً مع شكلها	تجنى الثمار بجنة الحيوان
وتظل واردة بأنهار بها	حتى تعود لذلك الجثمان
لكن أرواح الذين استشهدوا	فى جوف طير أخضر ريان
فلهم بذلك مزية فى عيشهم	ونعيمهم للروح والأبدان
بذلوا الجسوم لربهم فأعاضهم	أجسام تلك الطير بالإحسان
ولها قناديل إليها تنتهى	مأوى لها كمساكن الإنسان
فالروح بعد الموت أكمل حالة	منها بهذى الدار فى جثمان

هل تتلاقى أرواح الأحياء والأموات ؟

نعم إن أرواح الأحياء إذا ناموا تلاقت وأرواح الأموات كما قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر] .

يقول ابن كثير - رحمه الله - : فيه دلالة على أنها - الأرواح - تجتمع في الملاء الأعلى . وقال بعض السلف يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التي قد ماتت ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنه : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى في المنام فتتعارف ما شاء الله منها . [راجع مجموع الفتاوى ج ٢٤ ص ٣٠٣ ، و [ابن كثير ج ٤ ص ٥١ ، والقرطبي ج ١٥ ص ٢٤٩] .

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال :

« إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله تعالى كما يتلقون البشير في الدنيا فيقبلون عليه فيسألونه فيقول بعضهم لبعض : انظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد . قال : فيقبلون عليه فيسألونه ، ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ هل تزوجت ؟ فإذا سأله عن الرجل قد مات قبله فيقول : إنه هلك . فيقولون : إنا لله وإننا إليه راجعون . ذهب إلى أمه الهاوية فبثت الأم وبثت المربية .

قال : فتعرض عليه أعماله فإن رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وقالوا : اللهم هذه نعمتك على عبدك فأتمها وإن رأوا شراً قالوا : اللهم راجع بعبدك « السلسلة ٢٧٥٨ .

وقال أبو الدرداء يقول : إن أعمالكم تعرض على موتاكم فيسرون ويساءون قال : يقول : أبو الدرداء : اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً يخزي به عبد الله بن

رواحة . [ابن المبارك فى الزهد] .

وقد خرج النسائى بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال الحديث وفيه : (فيأتون أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فيقولون : دعوه فإنه كان فى غم الدنيا فإذا قال : أو ما أتاكم ؟ قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية « صحيح : أخرجه النسائى [١٨٣٣] فى الجنائز وقال الألبانى : صحيح السلسلة ٢٧٥٨ .

قال القرطبى :

وقد قيل فى قوله ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم : [الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف] . إنه هذا التلاقى وقد قيل : تلاقى أرواح النيام والموتى وقيل غير هذا . « التذكرة ص ٦٣ » وراجع الداء والدواء ص ٢٦ .

هل يسمع الميت الأحياء ويشعر بهم

نعم يسمع الميت فى الجملة كما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «يسمع خفق نعالهم حتى يولون عنه» .

وثبت عن النبى ﷺ: أنه ترك قتلى بدر ثلاثاً ثم أتاهم فقال: يا أبا جهل بن هشام ! يا أمية بن خلف ! يا عتبة بن ربيعة ! يا شيبه بن ربيعة ! هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربي حقاً » فسمع عمر رضيه الله ذلك فقال: يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا ؟! فقال: « والذى نفسى بيده ! ما أنت بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرّون أن يجيبوا » ثم أمر بهم فسحبوا فى قلب بدر « البخارى ومسلم » .

وكذلك فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر : « أن النبى ﷺ وقف على قليب بدر فقال: قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ وقال : إنهم يسمعون الآن ما أقول » .

وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أنه كان يأمر بالسلام على أهل القبور ويقول : « قولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم » . فهذا خطاب لهم وإنما يخاطب من يسمع .

وروى ابن عبد البر عن النبى ﷺ أنه قال: « ما من رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد عليه روحه حتى يرد عليه السلام » .

وفى السنن عنه أنه قال : « أكثرّوا من الصلاة علىّ يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة علىّ فقالوا: يا رسول الله ! وكيف تعرض صلاتنا عليك؟ وقد أُرمت - يعنى صرت رميماً - فقال: « إن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء » .

وفى السنن أنه قال: « إن الله وكل بقبرى ملائكة يبلغونى عن أمتى السلام » .
فهذه النصوص وأمثالها تبين أن الموت يسمع فى الجملة كلام الحى ولا يجب أن يكون السمع له دائماً . بل قد يسمع فى حال دون حال كما قد يعرض للحى فإنه قد يسمع أحيانا خطاب من يخاطبه وقد لا يسمع لعارض يعرض له وهذا السمع سمع إدراك ليس يترتب عليه جزاء ولا هو السمع المنفى بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ [النمل: ٨٠] قال المراد بذلك سمع القبول والامثال . فإن الله جعل الكافر كالميت الذى لا يستجيب لمن دعاه وكالبهائم التى تسمع الصوت ولا تفقه المعنى . فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى فإنه لا يمكنه إجابة الداعى ولا امثال ما أمر به ونهى عنه فلا ينتفع بالأمر والنهى وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهى وإن سمع الخطاب وفهم المعنى . كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣] [مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢٤ ص ٣٦٣ : ٣٦٥] .

اعلم رحمك الله أن عائشة رضي الله عنها قد أنكرت هذا المعنى واستدلّت بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ [الروم: ٥٢] . وقوله: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢] .

ولا تعارض بينهما لأنه جائز أن يكونوا يسمعون فى وقت ما . أو فى حال ما فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص . وقد وجد هنا بدليل ما ذكرناه . وقد تقدم وبقوله عليه الصلاة والسلام: [إنه ليسمع قرع نعالهم] . وبالمعلوم من سؤال الملكين للميت فى قبره وجوابه لهما وغير ذلك مما لا ينكر . « التذكرة ص ١٤٧ » .

وقد ثبت فى الصحيحين أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه فروى مسلم فى صحيحه من حديث عبد الرحمن بن شماس المهرى قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت فبكى طويلاً وحوّل وجهه إلى الجدار فجعل ابنه يقول: ما يبكيك يا أبتاه . أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل

ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإنى كنت على أطباق ثلاث لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ منى ولا أحب أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما جعل الله الإسلام فى قلبى لقيت رسول الله ﷺ فقلت: ابسط يدك فلأبائعك فبسط يمينه قال: فقضبت يدى قال: فقال مالك يا عمرو؟ قال: قلت أردت أن أشتري فقال: تشتري ماذا؟ قلت أن يغفر لى قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقمت لأنى لم أكن أملأ عيني منه ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالى فيها فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار فإذا دفتمونى فسنوا على التراب سنا ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحرجزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم .

وقد علم النبى ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون. نسأل الله لنا ولكم العافية » . رواه مسلم عن بريدة .

وهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلم الرد وإذا صلى الرجل قريباً منهم شاهدوه وعلّموا صلاته وغبطوه على ذلك .

وأيضاً ما رواه عام بن سعد عن أبيه قال: « جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: إن أبى كان يصل الرحم وكان وكان فأين هو؟ قال: « فى النار » فكان الأعرابى وجد من ذلك فقال: يا رسول الله ! فأين أبوك؟ قال: « حيثما مررت بقبر كافر فبشرته بالنار » . قال: فأسلم الأعرابى بعد فقال: لقد كلفنى رسول الله ﷺ تعباً: ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار [رواه الطبرانى السلسلة الصحيحة رقم ١٨] .

وما رواه أحمد وأبو نعيم عن عمرو بن حزم قال: [رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَبْرِهِ فَقَالَ انْزِلْ عَنِ الْقَبْرِ لَا تُؤْذِ صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ . [السلسلة ٢٩٦٠] .

وهذا كله إنما يدل على أن الأموات ليسمعون ويشعرون بالأحياء وهذا ما ذهب إليه كثير من العلماء وإن أردت الزيادة فعليك بكتاب فتح الباري - كتاب الجنائز ومجموع الفتاوى رقم [٢٤] وكتاب الداء والدواء والتذكرة وغيره .

ما ينتفع به العبد بعد موته

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبع يجرى للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من علم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو ورث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته». أخرجه البيهقي وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم [٣٥٩٦].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت: من مات مرابطاً في سبيل الله ومن علم علماً أجرى له عمله ما عمل له ومن تصدق بصدقة فأجرها يجرى له ما وُجدت ورجل ترك ولداً صالحاً فهو يدعو له». رواه أحمد والطبراني في الكبير وحسنه الألباني في صحيح الجامع [٨٩٠].

وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من عمل الأحياء تجرى للأموال: رجل ترك عقباً صالحاً يدعو له ينفعه دعاؤهم ورجل تصدق بصدقة جارية من بعده له أجرها ما جرت بعده ورجل علّم علماً فعمل به من بعده له مثل أجر من عمل به من غير أن ينقص من أجره من يعمل به شيئاً». رواه الطبراني في الكبير وحسنه الألباني في صحيح الجامع [٩٠١] وقال الشيخ الألباني في تعليقه على صحيح الجامع [٣٠٦/١] يلاحظ أنه لم يذكر الرابع ولعله المرابط كما مرّ في الحديث السابق [٨٩٠] ثم إنني لم أر الحديث معزواً للطبراني أو غيره من حديث سلمان.

حکم ما یهدى للمیت بعد موته

وهذه المسألة شديدة الارتباط بالنيابة فى النيات فى العبادات وقد اختلف العلماء فى ذلك بين مانع مطلقاً ومجيز مطلقاً ومجيز فى بعض دون بعض : فقد ذهب إلى المنع مطلقاً الإمام مالك وأصحابه .

وذهب إلى الإجازة مطلقاً ابن تيمية فى أحد أقواله .

وذهب جماهير العلماء إلى جواز النيابة فى الحج ومن قال بذلك ابن عباس وعلى بن أبى طالب وعطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعى وسفيان الثورى والأوزاعى والشافعى وأحمد وابن أبى لیلی وإسحاق وأهل الظاهر وغيرهم .

ومن هؤلاء المجيزين للنيابة فى الحج من منع النيابة فى الصوم منهم الشافعى والثورى وقال بذلك ابن عمر وعائشة وأبو حنيفة .

وأجاز أحمد النيابة فى صوم النذر خاصة وهو قول ابن عباس وإسحاق وأبى عبيد والليث بن سعد .

ولقد ساق أدلة المجيزين والمانعين الشيخ عمر سلمان الأشقر فى كتابه القيم : [مقاصد المكلفين] ثم حرر محل النزاع فقال حفظه الله : « يتحرر محل النزاع . . . فالتزاع بين العلماء فى النيابة فى العبادات فى عبادتين :

الأولى: فى الصوم عن الميت الذى عليه صوم نذر أو صوم من رمضان كان يمكنه قضاؤه ثم توفى قبل أن يقضيه .

الثانية : فى الحج فى حالتين :

فى ميت لم يحج ولم يكن متعمداً للترك ولكنه كان يسوف ويؤجل فوفاه

الاجل .

وفى حىٌ غير قادر على الحج بنفسه ولكنه قادر بغيره بأن ينفق على من يحج عنه ماله أو يجد من يطيعه من ولد أو قريب إذا أمره بالحج عنه .

الرأى الراجح :

وما ذهب إليه الجمهور من جواز النيابة فى الحج فى الحالتين المذكورين هو الرأى الراجح الذى تشهد له الأدلة كما بيّنا ونرى أنه تجوز النيابة فيه من الولد ومن غير الولد خلافاً لمن قيّده بذلك ومذهب الإمام الشافعى فى عدم جواز النيابة فى صوم الفريضة مذهب قوى إلا أننا نرجح مذهب الحنابلة فى جواز النيابة فى صوم النذر لصحة الأحاديث فى ذلك على أن يكون النائب ولياً ولداً أو أباً أما غير الولي فلا للحديث: « من مات وعليه صوم صام عنه وليه » .

ونستطيع القول بأن العبادات البدنية التى لا مدخل للمال فيها لا تجوز النيابة فيه مطلقاً وهى : الوضوء والغسل والتيمم والصلاة والصوم غير المنذور .

والعبادات المالية تجوز فيها النيابة مطلقاً ولذلك أقرَّ ﷺ بل حبَّ قضاء الدين عن الميت فعن سلمة بن الأكوع أن النبى ﷺ أتى بجنازة فقالوا: صلّ عليه قال: « هل ترك شيئاً ؟ » قالوا: لا . قال: « هل عليه دين ؟ » . قالوا: ثلاثة دنانير . قال: « صلّوا على صاحبكم » . قال رجل من الأنصار يقال له : أبو قتادة : صلّ عليه يا رسول الله وعلى دينه .

وعن قتادة رضي الله عنه من حديث سلمة بن الأكوع وفيه : أريت إن قضيتُ عنه أتصلى عليه؟ قالك : « إن قضيت عنه بالوفاء صليت عليه » قال : فذهب أبو قتادة فقضى عنه . فقال : « أوفيت ما عليه ؟ » قال : نعم . فدعا رسول الله ﷺ فصلى عليه .

ويدل على ذلك جواز الصدقة على الميت .

أما العبادات التي فيها مدخل للمال كالحج فالراجع دخول النيابة فيها لأجل ذلك وبناءً على هذا الأصل جاز للولي أن يقوم بتفريق زكاة مال اليتيم وزكاة مال المحجور عليه لجنون أو سفه وجاز أن يفوض الرجل غيره في التصرف في ماله بما في ذلك إخراج الزكاة عنه .

إهداء ثواب العبادة للأموات

هذه المسألة شديدة الارتباط بالمسألة السابقة بل إن الفقهاء يعرضون هاتين المسألتين وكأنهما مسألة واحدة .

والأقوال فيها متقاربة :

فالإمام مالك رحمه الله تعالى : منع من إهداء الثواب مطلقاً وبذلك قالت المعتزلة . [نيل الأوطار ٩٩/٤] .

وذهب ابن تيمية إلى جواز إهداء ثواب ما يتعبد به المرء للميت مطلقاً أى سواء أكان صلاة أم صياماً أم حجاً أم قراءة قرآن : [انظر مجموع الفتاوى ١٦/٢٦] .

وقد نسب هذا القول إلى ابن تيمية : محمد رشيد رضا فى تفسير المنار (٨/ ٢٥٤) .
(٢٧٠) والألبانى فى أحكام الجنائز (ص ١٧٤) .

وقد انتصر ابن القيم لشيخه فى كتاب [الروح] وأطال الاستدلال والاحتجاج لنصرة هذا المذهب .

وأجاز الإمام أحمد وبعض الشافعية إهداء ثواب قراءة القرآن إلى الأموات . (نيل الأوطار ٩٩/٤) .

ومنع من ذلك الشافعى رحمه الله تعالى كما منعه مالك ويرى بعض العلماء أن جواز الإهداء مقصور على الابن فيجوز له أن يهدى لأمه وأبيه ولا يجوز من غيره .

انظر : نيل الأوطار (٩٩/٤) تفسير المنار (٨/ ٢٥٤) أحكام الجنائز (ص ١٧٤) .

حُجَجُ المانعين :

احتج المانعون هنا بالحجج نفسها التى استدل بها مانعو النيابة فى العبادات وقد سبق ذكرها .

حجج المجيزين :

احتجوا بالنصوص التي تدل على جواز النيابة والتي ذكرناها في المسألة السابقة
وبنصوص أخرى منها :

١- عن عائشة رضي الله عنها : أن رجلاً قال: إن أمي أفتلت نفسها ولم توص وأظنها
لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقتُ عنها ؟ قال: « نعم فتصدق عنها » .

أخرجه البخارى ومسلم ومالك فى الموطأ وأبو داود والنسائى وابن ماجه والبيهقى وأحمد أحكام الجنائز ص

. ١٧٢

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فقال: يا
رسول الله إن أمي توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت بشيء عنها ؟ قال:
[نعم] . قال : فإننى أشهدك أن حائط المخراف صدقة عليها . « أى نخلاً » أخرجه
البخارى والنسائى وأبو داود والترمذى والبيهقى وأحمد والسياق له .

٣- عن أبى هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن أبى مات وترك مالا
ولم يوص فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه ؟ قال: « نعم » .

أخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه والبيهقى وأحمد : أحكام الجنائز ص ١٧٢ .

٤- عن عبد الله بن عمرو : أن العاص بن وائل السهمى أوصى أن يعتق عنه
مائة رقبة فأعتق ابنه هشام خمسين رقبة وأراد ابنه عمرو أن يعتق عنه الخمسين
الباقية . قال: حتى أسأل رسول الله ﷺ فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، إن
أبى أوصى أن يعتق عنه مائة رقبة وإن هشاماً أعتق عنه خمسين وبقيت عليه خمسون
أفأعتق عنه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه لو كان مسلماً فأعتقتم أو تصدقتم عنه أو
حججتم عنه بلغه ذلك » .

أخرجه أبو داود فى آخر كتاب الوصايا والبيهقى والسياق له وأحمد والرواية الأخرى له وإسنادهم حسن

[أحكام الجنائز] .

٥- عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إذا مات الإنسان انقطع

عمله إلّا من ثلاث أشياء : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له .

أخرجه مسلم والسياق له والبخارى فى الأدب المفرد ص ٨ وأبو داود والنسائى وأحمد [أحكام الجنائز ص

. [٣٦

٦- عن أبى قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: « خير ما يخلف الرجل من بعده

ثلاث : ولدٌ صالح يدعو له وصدقة تجري يبلغه أجرها وعلم يعمل به من بعده» أخرجه

ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وإسناده صحيح كما قال المنذرى فى الترغيب

والترهيب (٥٨/١) .

٧- عن أبى هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: « إن مما يلحق المؤمن من

عمله وحسناته بعد موته علماً علّمه ونشره وولد صالحاً تركه ومصحفاً ورثه أو

مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله فى

صحته وحياته يلحقه من بعد موته» . أخرجه الترمذى بإسناد حسن ورواه ابن خزيمة فى صحيحه .

واحتجوا بالنصوص الدالة على مشروعية الدعاء للأحياء والأموات : كقوله

تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا

تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحشر] .

ومن الأحاديث : « دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة . عند رأسه ملك

موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل » . أخرجه مسلم

والسياق له وأبو داود وأحمد من حديث أبى الدرداء .

ومنها : أنه قد شرع لنا الدعاء عند زيارة القبور وفى الصلاة على الجنائز .

وعن أبى هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: « من دعا إلى هدى كان له

من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شىء» رواه أحمد ومسلم .

ومن هذا الباب أيضاً ما ورد فى الحديث : « إن مما يلحق المؤمن من عمله

وحسناته بعد موته علماً علّمه ونشره وولداً صالحاً تركه ومصحفاً ورثه أو مسجداً بناه

أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها » . سبق تخريجه .

أما بقية النصوص الدالة على الصدقة فقد سبق القول بأن الأمور المالية تقبل النيابة عن الأحياء والأموات وكذلك يصح إهداء ثوابها للأموات وقد ذهب جمع من العلماء منهم الشوكاني ومحمد رشيد رضا إلى أن الصدقة التي تلحق الميت هي الصدقة الكائنة من الابن فحسب لأن لأحاديث الواردة في الصدقة عن الميت كلها في ذلك .

يقول الشوكاني: « وأحاديث الباب تدل على أن الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منهما ويصل إليهما ثوابها فيخصص بهذه الأحاديث عموم قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم] . ثم استدرك قائلا: [ولكن ليس في أحاديث الباب إلا لحوق الصدقة من الولد وقد ثبت أن ولد الإنسان من سعيه فلا حاجة إلى دعوى التخصيص وأما من غير الولد فالظاهر من العمومات القرآنية أنه لا يصل ثوابه إلى الميت فيوقف عليها حتى يأتي دليل يقتضى تخصيصها.] [نيل الاوطار : ٩٩/٤] .

ويجاب عن ما ذكره من أن الصدقة المهداة الثواب التي تصل الميت مخصوصة بالولد بأمرين :

الأول: بالإجماع وقد نقل الإجماع النووي في شرحه على مسلم « نيل الاوطار [١٠٠/٤] » وابن كثير في تفسيره يقول ابن كثير : « أما الدعاء والصدقة فذاك مُجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما » [تفسير ابن كثير : ٤٦٢/٦] .

الثاني: سبق أن ذكرنا حديثين صحيحين رغب الرسول ﷺ فيهما في قضاء دين الميت وقد قضى دينه عنه رجل من غير قرابته وأقر رسول الله ﷺ ذلك بل أمره به . سبق ذكر هذين الحديثين في المسألة السابقة فإذا نفعه قضاء الدين عنه فإن الصدقة كذلك ولا فرق بينهما .

وما ذكره ابن النحوى من الشافعية من أنه ينبغي أن يجزم بوصول ثواب قراءة القرآن للميت إذا أهديت له لأنه دعاء غير صحيح . نيل الاوطار [١٠٠/٤] .

لأن القراءة ليست دعاء كلها فالقرآن فيه الدعاء والأخبار والقصص والأحكام فكيف يقال: القرآن دعاء فحسب؟! وقد ذكر ابن كثير أن الشافعي رحمه الله تعالى استنبط من قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم].

« أن قراءة القرآن لا يصل ثواب إهدائها إلى الموتى لأنه ليس من كسبهم وعملهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضيهم ولو كان خيراً لسبقونا إليه وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقسى والآراء ». تفسير ابن كثير [٤٦٢/٦] .

والحديث الذي يتعرض به في هذا المجال : « اقرءوا على موتاكم يس » حديث ضعيف لا ينهض للاستدلال .

النظر في هذه الأدلة :

هذه النصوص التي ساقوها لا تنهض للاستدلال على جواز إهداء الثواب إلى الميت في كل العبادات بل إن بعضها ليس من باب الإهداء .

أ - فالنصوص الدالة على مشروعية الدعاء للأحياء والأموات لا مدخل لها في هذا الباب فليست هي إهداء الثواب بل هي من باب شفاعة المسلم لغيره يقول العز ابن عبد السلام : الدعاء شفاعة جائزة من الأقارب والأجانب وليست مستثناة من هذه . يقصد النصوص المانعة من وصول عمل المرء لغيره . لأن ثواب الدعاء للداعي والمدعو به حاصل للمدعو له فإن طلب له المغفرة والرحمة كانت المغفرة والرحمة مخصوصين بالمدعو له وثواب الدعاء للداعي ونظر ذلك بما لو شفع إنسان لفقير في كسوة أو في العفو عن زلة كانت للشافع ثواب الشفاعة في العفو والكسوة وكانت مصلحة العفو والكسوة للفقير .

ب - وأيضاً النصوص الدالة على انتفاع المرء بأعماله الصالحة التي استمر وجودها وانتفاع الناس بها عن بعده لا تصلح للاحتجاج بها على هبة الثواب لأنها من سعى

الإنسان وعمله أو هي آثار عمله .

يقول ابن كثير : بعد أن ساق حديث « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به » . يقول : فهذه الثلاث في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله وكما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » . رواه الترمذی والنسائي .

والصدقة الجارية . كالوقف ونحوه . هي آثار عمله ووقفه . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ... ﴾ [يس: ١٢] .

والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله .

مقاصد المكلفين للشيخ عمر سليمان الأشقر ص ٢٩٠ - ٢٩٥ .

خوف السلف من سوء الخاتمة

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله :

وكان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم . ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق وقد قيل إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم . يقولون : بماذا يختم لنا ؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق . يقولون : ماذا سبق لنا ؟

قال سفيان لبعض الصالحين : هل أبكاك قط علم الله فيك ؟ فقال له ذلك الرجل : تركنى لا أفرح أبداً .

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق والخواتيم فكان يبكى ويقول :

أخاف أن أكون في أم الكتاب شقياً . ويبكى ويقول : أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت .

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضاً على لحيته ويقول : يارب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ففى أى الدارين منزل مالك ؟ جامع العلوم والحكم ص ٥٠ .

وقال حاتم الأصم : من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار فهو مغتر فلا يأمن الشقاء : الأول خطر يوم الميثاق حين قال : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى فلا يعلم فى أى الفريقين كان والثانى حين خلق فى ظلمات ثلاث فنادى الملك بالشقاوة والسعادة ولا يدرى أمن الأشقياء هو أم من السعداء والثالث ذكر هول المطلع فلا يدرى أبشر برضاء الله أم بسخطه والرابع يوم يصدر الناس أشتاتا فلا يدرى أى الطريقين يسلك به وقال سهل التستري : المرید يخاف أن يتلى بالمعاصى والعارف يخاف أن يتلى بالكفر .

ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم من النفاق ويشد قلقهم وجزعهم منه فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر كما تقدم أن دسائس سوء

الخفية توجب سوء الخاتمة ، وقد كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقيل له : يا نبي الله آمنا بك وبما جنت به فهل تخاف علينا ؟ فقال : نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبها كيف يشاء » .

خرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أنس وخرج الإمام أحمد من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ كان يكثر في دعاء أن يقول : « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقلت : يا رسول الله وإن القلب ليقلب ؟ قال : نعم ما من خلق الله من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء الله عز وجل أقامه وإن شاء أزاغه فتسأل الله ربنا أن لا يُزِغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب . قالت : قلت : يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي ؟ قال : بلى قولي : اللهم رب النبي محمد ﷺ اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحيتني » .

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق : واعلم أن لسوء الخاتمة أعاذنا الله منها أسباباً ولها طرق وأبواب أعظمها الإنكباب على الدنيا والإعراض عن الآخرة والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية وجانب من الإعراض ونصيب من الجرأة والإقدام فملك قلبه وسبى عقله وأطفأ نوره وأرسل عليه حجه فلم تنفع منه تذكرة ولا نجحت فيه موعظة فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبين المراد ولا علم ما أراد وإن كرر عليه الداعي النداء . « الداء والدواء ص ٢٥٠ » .

قال القرطبي : وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة والاستقامة على مشيئته موقوفة والعاقبة مغيبة والإرادة غير غالبية فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من البعير فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم . فأصبحت وزهرها يابس

هشيم إذ هبت عليها الريح العقيم ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم .
وأخيراً ينبغي لكل مؤمن أن يقرأ الكلمات التالية ويتفكر فيها وينظر إلى نفسه وإلى قلبه فإن كان من العصاة فيليرجع إلى الرب الرحيم . « التذكرة » ٥٥/١ .

قال أبو محمد عبد الحق : واعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا تكون لمن استقام ظاهرة وصلح باطنه ما سُمع بهذا ولا عُلِمَ به ولله الحمد وإنما تكون لمن له فساد في العقد - عقد السير في طاعة الله أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم فربما غلب عليه ذلك حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم - يهلك - قبل الإنابة فظفر به الشيطان عند تلك الصرمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله . « الداء والدواء » ص ٢٥٠ .

أسباب سوء الخاتمة

سوء الخاتمة . أعاذنا الله منها . لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ما سُمع بهذا ولا عُلِمَ به والحمد لله وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل أو إصرار على الكبائر أو إقدام على العظائم . فربما غلب عليه ذلك حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة . والعياذ بالله ثم العياذ بالله . أو يكون مستقيماً ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سبته ويأخذ فى غير طريقه فيكون سبباً لسوء خاتمته وشؤم عاقبته . « التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة » ص ٣٧ .

وسوء الخاتمة على مرحلتين :

الأولى : أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك أو جحود عند سكرات الموت وأهواله فيقتضى ذلك العذاب الدائم وهذه أعظم .

الثانية : أن يتسخط الأقدار أو يتكلم بالاعتراض أو يجور فى وصيته أو يموت مُصراً على ذنب من الذنوب وهذه دون الأولى . « تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان » ص ٣٨ .

والأسباب التى تقضى إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامع منها بإيجاز :

١- الشك والجحود الذى تسببه البدعة :

ومعناها : أن يعتقد فى ذات الله تعالى أو صفاته أو أفعاله خلاف الحق إما تقليداً أو برأيه الفاسد فإذا انكشف الغطاء عند الموت بان له بطلان ما اعتقده فظن أن جميع ما اعتقده لا أصل له .

وكم ختم لكثير من البشر بهذا عندما ابتدعوا فى دين الله عز وجل وزاغوا وانحرفوا عن صراط الله المستقيم وظهرت حقيقتهم فى أول لقاء لهم مع رب العالمين سبحانه .

هذا ابن الفارض عمر بن على الحموى (المتوفى سنة ٦٣٢هـ) والذى كان ينطق بالاتحاد ويقول بحلول الله جل وعلا فى خلوقاته وأن العبد رب والرب عبد عندما احتضر كما قال الأئمة الثقات الذين شاهدوه فى حالة الاحتضار نظم بيتين من الشعر وهو فى تلك الحالة يعبر فيها عن شقوته وعن هلاكه ويبكى ويقول :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى
أمنية ظفرت نفسى بها زمنأ واليوم أحسبها أضغاث أحلامى

« سير أعلام النبلاء ٢٢ / ١٣٦٨ .

وقال ذلك عندما عاين سخط الله جل وعلا وكشف له عن حقيقة أمره وقللاً أن يختم لمبتدع فى دين الله تعالى بالإيمان ونسأل الله السلامة والعافية .

٢- التسويف بالتوبة :

والتوبة إلى الله عز وجل من جميع الذنوب واجبة على كل مكلف كل لحظة قال سبحانه : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور] .

وكان ﷺ وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يتوب إلى الله تعالى كل يوم مائة مرة كما قال عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة » رواه مسلم .

وإن من أنجح حيل إبليس التى يحتال بها على الناس التسويف فى التوبة فيوسوس للعاصى بأن يتمهل فى التوبة فإن أمامه زمنأ طويلاً ولو تاب الآن ثم رجع لا يمكن أن تقبل توبته بعد ذلك فيكون من أصحاب النار أو يوسوس له بأنه إذا بلغ الخمسين أو الستين مثلاً فعليه أن يتوب توبة نصوحاً ويلزم المسجد ويكثر القربات . أما الآن فإنه فى شبابه وزهرة عمره فليمتع نفسه ولا يشق عليها بالتزام الطاعات من الآن .

فهذه بعض مكائد إبليس التسويف بالتوبة قال بعض السلف الصالح : أنذرهم سوف فإنها أكبر جنود إبليس ومثل المؤمن الحازم الذى يتوب إلى الله من كل ذنب

وفى كل وقت خوفاً من سوء الخاتمة ومحبة لله والمفرط المسوف الذى يؤخر توبته كمثل قوم فى سفر دخلوا قرية فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتعام سفره وجلس متأهباً للرحيل .

أما المفرط فإنه يقول كل يوم : سأذهب غداً حتى أعلن أمير القافلة الرحيل ولازاد معه وهذا مثل للناس فى الدنيا فإن المؤمن الحازم متى جاء الموت لم يندم أما العاصى المفرط فإنه يقول :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] رسالة حسن الخاتمة « للشخ / عبد الله بن محمد المطلق .

٣- طول الأمل :

وهو سبب شقاء كثير من الناس حين يخدعهم الشيطان فيصور لهم أن أمامهم عمراً طويلاً . وسنين متعاقبة ينون فيها آمالاً شامخة فيجمعون همتهم لمواجهة هذه السنين ولبناء هذه الآمال وينسى الآخرة ولا يتذكر الموت وإذا ذكره يوماً برّم منه لأنه فى ظنه ينغص عليه لذاته ويكدر عليه صفو عيشه .

كان على بن أبى طالب رضي الله عنه يشتد خوفه من اثنين : طول الأمل واتباع الهوى . يقول : « فأما طول الأمل فينسى الآخرة وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق » . وكان يقول : « ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة قد أسرعت مقبلة ولكل واحدة منها بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل » فإذا أحب الإنسان الدنيا أكثر من الآخرة أثرها عليها واشتغل بزينتها وزخرفها وملذاتها عن بناء مسكنه فى الآخرة فى جوار الله تعالى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ويظهر أثر قصر الأمل فى المبادرة إلى الأعمال الصالحة واغتنام أوقات العمر فإن الأنفاس معدودة والأيام مقدرة وما فات لن يعود .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك . رواه البخارى .

وقد أرشد رسول الله ﷺ المؤمنين إلى ما يبعد عنهم طول الأمل ويصبرهم بحقيقة الدنيا فأمر بتذكر الموت وبزيارة القبور وبغسل الموتى وتشيع الجنائز وعبادة المرضى وزيارة الصالحين فإن كل هذه الأمور توقظ القلب من غفلته وتبصره بما سيقدم عليه فيستعد له ويحمل ذلك على الاجتهاد فى العمل الصالح ويبغض إليه الركون إلى الشهوات المحرمة فى الدنيا التى سيذهب عنها لا محالة . راجع رسالة (حسن الخاتمة) للشيخ عبد الله بن محمد المطلق .

٤ - حب المعصية وإلفها واعتيادها :

فإذا ألف الإنسان المعصية ولم يتب منها فإن الشيطان يستولى على تفكيره حتى فى اللحظات الأخيرة من حياته فإذا أراد أقرباؤه أن يلقنوه الشهادة ليكون آخر كلامه لا إله إلا الله طغت هذه المعصية على تفكيره فتكلم بما يفيد انشغاله بها وختم له بالسوء عياداً بالله تعالى من ذلك .

أفلا يخشى الذين يتركون الصلاة تلو الصلاة ثم يوعظون فلا يستجيبون ألا يخشى هؤلاء أن يختم لهم بالسوء . ألا يخشى الذين يتعاملون بالربا ثم لا يتوبون ولا يذكرون أن يتخطفهم الموت وهم على هذا الجرم العظيم والذنب الكبير .

وأما إذا تاب العبد من المعصية توبة نصوحاً فإنه يرجى له الخير بإذن الله ولذلك قال علماؤنا : انكسار المذنب خير من صولة المطيع أى من عجبه بنفسه وإجلاله لها . ورب معصية أورتك ذلاً وانكساراً خير من طاعة أوثقت عزاً واستكباراً .

جاء فى ترجمة العبد الصالح أبان بن أبى عياش رحمه الله أنه قال : خرجت من عند أنس بن مالك رضي الله عنه لما كان فى البصرة بعد الظهر فرأيت جنازة يحملها أربعة نفر

فقط فقلت: سبحان الله رجل مسلم يموت ويمر بسوق البصرة لا يشهده إلا أربعة نفر والله لأشهدن هذه الجنازة. يقول: فحملت معهم ثم لما دفنا الرجل قلت لهم: ما شأنكم؟ قالوا: استأذنتنا تلك المرأة لدفن هذا الرجل يقول: فذهبت إليها وقلت: يا أمة الله ما شأن هذا الرجل؟ قالت: إنه ولدي وكان مسرفاً على نفسه بعض الأحيان فقال: يا أماء إذا أنا متُ فلقينني كلمة التوحيد في حال الاحتضار فإذا قلتها وقضيت حياتي فضعي قدمك على خدي وقولي هذا جزاء من عصى الله ولا تخبري أحداً بموتي فهم يعلمون عصياني ولن يشهدوا جنازتي ثم إذا دفنت فارفعي يديك إلى الله وقولي: يا رب إنني راضية عن ولدي فارض عنه فلما سألها أبان بن أبي عياش عن هذا ضحكت فقالت ما الذي يضحك يا أمة الله؟ قالت: والله إنني رفعت يدي إلى الله بعد أن دفن ابني وقلت: يا رب إنني راضية عنه فارض عنه وفعلت ما أوصاني به فسمعتة يناديني: يا أماء قدمت على رب رحيم كريم غير غضبان عليّ ولا ساخط. « تهذيب التهذيب » لابن حجر ٩٧/١.

فإذا كان في النفس انكسار وخضوع وتذلل للواحد القهار فسوف يظهر ذلك عند الاحتضار وإن كان فيها غير ذلك فتعوذ بالله تعالى من سخطه وغضبه.

٥- الانتحار:

فإذا أصاب المسلم مصيبة فصبر واحتسب كان له أجر وإن جزع وتضايق من الحياة ورأى أن أحسن طريق له يتخلص به من هذه الأمراض والمشاكل هو الانتحار فقد اختار المعصية وأسرع إلى غضب الله تعالى. وقتل نفسه بدون حق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الذي يخنق نفسه يخنقها في النار والذي يطعن نفسه يطعن في النار». رواه البخاري.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبي ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع شاة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه ف قيل: ما أجراً منا اليوم أحد كما أجراً فلان. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه من أهل النار».

فقال رجل من القوم : أنا صاحبه . قال : فخرج معه كلما وقف وقف معه وإذا أسرع أسرع معه قال : فجرح الرجل الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثديه ثم تحامل على سيفه فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهد أنك رسول الله . قال : « وما ذاك » قال الرجل : الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك . فقلت : أنا لكم به فخرجت في طلبه ثم جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثديه ثم تحامل عليه فقتل نفسه . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » . رواه البخارى ومسلم .

سادساً : النفاق :

وهو اختلاف السريرة والعلانية أى اختلاف الظاهر مع الباطن واختلاف القول مع العمل .

فإذا ظهر التباين والاختلاف فالإنسان منافق وإذا كان الإنسان من المنافقين المرائين المخادعين فكيف سيلقى الله عز وجل في حال الاحتضار وفي شدة الموت وسكراته والذي هو أعظم كرب يمر على الإنسان منذ أن خلقه الله عز وجل .

قال أحد السلف : إذا استوى ظاهر المسلم وباطنه فهذا هو الإنصاف والعدل وإذا كان الباطن خيراً من الظاهر فهذا هو الفضل وإذا كان الظاهر خيراً من الباطن فهذا هو الجور .

وكان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ويشدّ قلوبهم وجزعهم منه فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسأل صاحب سر النبي ﷺ في الفتن والمنافقين حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فيقول : أسألك بالله هل سماني رسول الله ﷺ من المنافقين ؟ فيقول حذيفة : لا ولا أؤمن أحداً بعدك وفي مسند البزار بسند صحيح عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : أنه دخل على أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها فقال : إني أكثر قریش مالاً وإنى أخشى أن يهلكنى مالى فقالت : تصدق

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه » فخرج عبد الرحمن بن عوف وهو متقطع قلبه من الخوف فالتقى بعمر بن الخطاب وأخبره بالآثر فدخل على أم سلمة فقال: أسألك بالله: هل أنا منهم؟ فقالت لا ولا أبرئ أحداً بعدك .

أخى المسلم :

هذه بعض من أسباب سوء الخاتمة وإننى لأحذر نفسي وإياكم أن يكون فينا سبب من هذه الأسباب فأعد ما يصلح لها وإياك والتسويق بالاستعداد فإن العمر قصير وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك والإنسان يموت على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه . وسيأتى بإذن الله ذكر لبعض الحوادث الدالة على سوء الخاتمة لعل النفس تعتبر بحال من مضى من مصارع القوم فإن فى ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

أمثلة من علامات سوء الخاتمة:

العلامات الدالة على سوء الخاتمة كثيرة فبعضهم يظهر عليه ذلك عند اشتداد المرض فيقع فى التسخط والاعتراض على قضاء الله . عياداً بالله تعالى من ذلك . ومنهم من يتلفظ عند احتضاره بكلام يغضب المولى عز وجل أو يحال بينه وبين كلمة التوحيد .

وبعضهم ربما ظهر عليه ذلك عند تغسيله كالنغير فى اللون ونحو ذلك ومنهم من تظهر عليه عند إنزاله فى قبره والبعض الآخر بعد دفنه فى قبره وسأذكر فيما يلى بعض الحوادث الدالة على سوء الخاتمة لعل ذلك العبرة والعظة .

* قال الحافظ ابن رجب الحنبلى رحمه الله :

« قال عبد العزيز بن أبى رواد : حضرت رجلاً عند الموت يلحن الشهادة : لا إله إلا الله فقال فى آخر ما قال : هو كافر بما تقول ومات على ذلك قال فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر وكان عبد العزيز يقول : اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعتة » .

* ومنذ سنوات جرت حادثة فى القصيم وتطايّرت أخبارها هنا وهناك وحاصلها أن رجلاً فى حال احتضاره ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر فجاء بعض أصحابه ممن كان يصلى معه فى المسجد والله أعلم بما فى القلوب وقال: يا عبد الله هذا المصحف الذى كنت تقرأ فيه فاتق الله فى نفسك ولقنه كلمة التوحيد فقال: هو كافر بالمصحف وبـ لا إله إلا الله وختم له على ذلك الحال . فتعوذ بالله تعالى من الخذلان .

* قال ابن أبى الدنيا رحمه الله: « حدثنى أبو الحسن بن أحمد الفقيه قال: نزل الموت برجل كان عندنا فقيل له: استغفر الله فقال: ما أريد فقيل له: قل لا إله إلا الله فقال: ما أقول لجهد جهده ثم مات » .

وسمعت أن رجلاً كان كثير الصوم والتعبّد اشتد به الألم فافتتن فسمعتة يقول: لقد قلبنى فى أنواع البلاء فلو أعطانى الفردوس ما وقى بما يجرى علىّ ثم صار يقول: وأى شىء فى هذا الابتلاء من المعنى إن كان موتاً فيجوز فأماً هذا التعذيب فأى شىء المقصود به [. تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان ص ٤٥ .

هذا مما جاء من الحوادث الدالة على سوء الخاتمة حال الاحتضار .

أما ما ظهر عند التغسيل فكثير جداً :

* يقول الشيخ القحطانى فى محاضرة له: « إن بعض الأموات عندما كنت أغسلهم كان بعضهم تنقلب بشرته إلى السواد وبعضهم يقبض يده اليمنى وبعضهم يدخل يده فى فرجه وبعضهم تشم رائحة الشواء تخرج من فرجه وبعضهم تسمع كأن أصياخاً من نار أدخلت فى فرجه .

يقول: ولقد جىء بميت فلما ابتدأنا بتغسيله انقلب لونه كأنه فحمة سوداء وكان قبل ذلك أبيض البشرة . فخرجت من مكان التغسيل وأنا خائف فوجدت رجلاً واقفاً فقلت له: هذا الميت لكم ؟ قال: نعم قلت أنت أبوه ؟ قال: نعم . قلت: ما شأن

هذا الرجل ؟ قال : هذا الرجل كان لا يصلى . فقلت له : خذ ميتك فغسله .

« تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان ص ٤٧ » .

وأما ما ظهر عند الإنزال إلى القبر فمنه :

* قال الشيخ القحطاني : « خرجت ذات يوم من المقبرة بعد صلاة العصر وكنا قد قبرنا رجلاً وكان الطين عالقاً فى يدى فأردت أن أغسلها إذ جاءت جنازة فقال أحدهم وكانوا فى حدود الخمسين رجلاً : بالله عليك أن تساعدنا فى قبر هذا الرجل فوالله لا نحسن القبر فسكَّلتُ الرجل من جهة الرجلين وكان ثقيلاً فأعاننى عليه بعضهم فوضعتهم فى القبر وطلبت لبنة أضعها تحت رأسه وقد حللت الأربطة فنظرت فإذا برأس هذا الميت قد تحول عياداً بالله من القبلة هكذا فحول الشيخ رأسه فقمت برد هذا الميت إلى القبلة وأخذت اللبنة الثانية ولكنى فى هذه المرة وجدت عينيه قد فتحنا وأنفه وفمه يصبان الدم الأحمر القانى فداخلنى الخوف والوجل حتى إن رجلى لم تستطعا أن تحملانى داخل القبر وقد رأى معى اثنان أو ثلاثة هذا المشهد الغريب الخطير ثم أعطونى اللبنة الثالثة فوجدت أنه تحول فى المرة الثالثة فتركته وهربت من القبر نهائياً فقام الذين كانوا معى وتولوا عملية الدفن فردموه بالتراب ولم يغلقوا اللحد من شدة الخوف ثم صرتُ أرى هذا الميت فى المنام سبع أو ثمانى مرات حتى سكن الله قلبى عندما ذهبت إلى العمرة وجلست هناك فى حدود خمسة عشر يوماً حتى نسيت وعدت إلى الرياض . تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان ص ٤٨-٤٩ .

وقال القرطبى رحمه الله فى التذكرة :

« ولقد أخبرنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن أحمد القصرى رحمه الله أنه توفى بعض الولاة بقسطنطينية فحفر له فلما فرغوا من الحفر وأرادوا أن يدخلوا الميت القبر إذا بحية سوداء داخل القبر فهابوا أن يدخلوه فيه فلم يزالوا يحفرون له نحواً من ثلاثين قبراً وإذا بتلك الحية تتعرض لهم فى القبر الذى يريدون أن يدفنوه فيه فلما أعياهم ذلك سألوا : ما يصنعون ؟ فقليل لهم : ادفنوه معها نسأل الله السلامة والستر فى الدنيا والآخرة » . التذكرة ص ٧٤ .

أمّا ما ظهر من علامات بعد الدفن فمن ذلك :

* قال ابن القيم رحمه الله في كتابه « الروح » :

« وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزير الحرائى أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال : فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج والميت فى وسطه فجعلت أمسح عيني وأقول : أناثم أنا أم يقظان ؟ ثم التفتُ إلى سور المدينة وقلت : والله ما أنا بنائم ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكّاسٌ « المكاس : صيغة مبالغة على وزن فعال وهو الذى يجبى مالا يستحق من الضرائب الجائزة - ثم توفى ذلك اليوم » . [الروح ص ١١٩] .

نعوذ بالله من سوء الختام ونسأله سبحانه أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب .

أمثلة من الواقع المعاصر على سوء الخاتمة

١- هذه قصة مؤلة ذكرها الشيخ أحمد القطان في محاضرة له :

يقول الراوى الذى نقل عنه الشيخ :

صحبنا على ظهر سفينة نجول بها حول البلدان طلباً للرزق شاب صالح نقى السريرة طيب الخلق كنا نرى التقى يلوح فى قسما ت وجهه والنور والبشر يرتسمان على محياه لا تراه إلا متوضئاً مصلياً أو ناصحاً مرشداً إن حانت الصلاة أذن لنا وصلى بنا فإن تخلف أحد عنها أو تأخر عاتبه وأرشدته وكان معنا على هذه السجينة طيلة أسفارنا وألقى بنا البحر إلى جزيرة من جزر الهند فنزلنا إليها وكان مما تعود عليه البحارة أن يستقروا أياما يرتاحون فيها ويستجمعون بعد عناء السفر الطويل يتجولون فى أسواق المدينة ليشتروا أعزب ما يجدون فيها لأهلهم وأبنائهم ثم يرجعون إلى السفينة فى الليل وكان منهم نفر ممن وقع فى الضلال يتيمم أماكن اللهو والهوى ومحال الفجور والبغاء وكان ذلك الشباب الصالح لا ينزل من السفينة أبداً بل يقضى هذه الأيام يصلح فى السفينة ما احتاج منها إلى إصلاح فيقتل الحبال ويلفها ويقدم الأخشاب ويشدها ويشغل بالذكر والقراءة والصلاة وقت ذاك .

قال الراوى : وعينه ترقرق بالدموع وتنحدر على لحيته : وفى إحدى السفرات وبينما كان الشاب منشغلاً بأعماله تلك إذ بصاحب له فى السفينة ممن أتبع نفسه هواها وانشغل بطالح الأمور عن صالحها وبسافل الأخلاق عن عاليها يهامسه ويقول :

صاحبى لم أنت جالس فى السفينة لا تفارقها ؟ لم لا تنزل حتى ترى دنيا غير دنياك ؟ ترى ما يشرح خاطر ويؤنس النفس . أنا لم أقل لك تعالى إلى أماكن البغاء وسخط الله ولا إلى البارات وغضب الله هيهات يا صاحبى لكن تعال فانظر إلى مُلَاعِبِ الثعابين كيف يتلاعب بها ولا يخافها وإلى راكب الفيل كيف يجعل من

خرطومه له سلماً ثم يصعد برجليه ويديه حتى يقيمه على رجل واحدة وآه لو رأيت من يمشى على المسامير أنى له الصبر ومن يلقم الجمر كأنما هو تمر ومن يشرب ماء البحر فيسيغه كما يسيغ الماء الفرات ، يا أخى ، انزل وانظر الناس فتحرّكت نفس الشاب شوقاً لما سمع فقال : وهل فى هذه الدنيا ما تقول ؟

قال صاحب السوء : نعم وفى هذه الجزيرة فانزل ترى ما يسرك ونزل الشاب الصالح مع صاحبه وتجوّلا فى أسواق المدينة وشوارعها حتى دخل به إلى طرق صغيرة ضيقة فانتهى بهما الطريق إلى بيت صغير فدخل الرجل البيت وطلب من الشاب أن ينتظره وقال : سأتيك بعد قليل ولكن ! إياك ! إياك أن تقترب من الدار . جلس الشاب بعيداً عن الباب يقطع الوقت قراءة وذكرأً وفجأة إذا به يسمع قهقهة عالية ليفتح الباب وتخرج منه امرأة قد خلعت جلباب الحياء والمروءة .

أواه !! إنه الباب نفسه الذى دخل فيه الرجل وتحركت نفس الشاب فدنا من الباب ويصيح سمعه لما يدور فى البيت وإذا به يسمع صيحة أخرى فنظر من شق الباب ويتبع النظرة أختها لتواصل النظرات منه وتتوالى وهو يرى شيئاً لم يألّفه ولم يره من قبل ثم رجع إلى مكانه ولما خرج صاحبه بادره الشاب مستنكراً : ما هذا ؟ ويحك هذا أمر يغضب الله ولا يرضيه فقال الرجل : اسكت يا أعمى يا مغفل هذا أمر لا يعينك قال الراوى : ورجعا إلى السفينة فى ساعة متأخرة من الليل وبقي الشاب ساهراً ليلته تلك مشغول الفكر فيما رآه قد استحکم سهم الشيطان من قلبه وامتلكت النظرة زمام فؤاده فما إن بزغ الفجر وأصبح الصباح حتى كان أول نازل من السفينة وما فى باله إلا أن ينظر فقط ولا شيء غير أن ينظر وذهب إلى ذلك المكان فما إن نظر نظرتة الأولى وأتبعها الثانية حتى فتح الباب وقضى اليوم كله هناك واليوم الذى بعده كذلك فافتقده ربان السفينة وسأل عنه :

أين المؤذن ؟ أين إمامنا فى الصلاة ؟ أين ذلك الشاب الصالح فلم يجبه من البحارة أحد فأمرهم أن يتفرقوا للبحث عنه فوصل إلى علم الربان من ذهب به إلى ذلك المكان فأحضره وزجره وقال له :

ألا تتقى الله ألا تخشى عقابه عجل. اذهب فأحضره فذهب إليه مرة بعد مرة لكن دون جدوى فلم يكن من قائد السفينة إلا أن أمر عدة من الرجال أن يحضروه قسراً فسحبوه بالقوة وحملوه إلى السفينة .

قال الراوى : وأبحرت السفينة راجعة إلى البلاد ومضى البحارة إلى أعمالهم وأخذ ذلك الشاب فى زاوية من السفينة يبكى ويئن حتى لتكاد نياط قلبه أن تنقطع من شدة البكاء ويقدمون له الطعام ولا يأكل وبقي على حاله البائسة هذه بضعة أيام وفى ليلة من الليالى ازداد بكاءه ونحيبه ولم يستطع أحد من أهل السفينة أن ينام فجاءه ربان السفينة وقال له :

يا هذا اتق الله ماذا أصابك لقد أقلقنا أنينك فما نستطيع أن ننام ويحك ما الذى بدل حالك؟ ويلك ما الذى دهاك ؟ فرد عليه الشاب وهو يتحسر : دعنى فإنك لا تدري ما الذى أصابنى ؟ فقال الربان : وما الذى أصابك ؟ عند ذلك كشف الشاب عن عورته وإذا الدود يتساقط من سوائه فانزعج ربان السفينة وارتعش لما رأى وقال : أعوذ بالله من هذا وقام عنه الربان وقبيل الفجر قام أهل السفينة على صيحة مدوية أيقظتهم وذهبوا إلى مصدرها فوجدوا ذلك الشاب قد مات وهو ممسك خشبة السفينة بأسنانه . استرجع القوم وسألوا الله حسن الختام وبقيت قصة هذا الشاب عبرة لمن يعتبر . « هذه القصة فى أول كتاب السهم المسموم » .

٢- وها هو شاب كان من العابثين يُحكى عنه أنه حصل له حادث مروع فى طريق مكة إلى جدة قال الراوى الذى حضر المشهد : فلما رأينا منظر السيارة ومشهدنا الخارجى قلت أنا ومن معى من الإخوة : ننزل فننظر ما حال هذا الإنسان وكيف أصبح . فلما اقتربنا من الرجل وجدناه فى النزاع الأخير من حياته ووجدنا مسجل السيارة مفتوحاً على أغانى غربية باطلة يقول : فأغلقتا المسجل ثم نظرنا إلى الرجل وما يعاينه من سكرات الموت فقلنا : هذه فرصة لعل الله عز وجل أن يجعل على أيدينا فلاح هذا الرجل فى دنياه وآخرفته فأخذنا نقول له : يا هذا قل : لا إله إلا الله . أتدرى أخى بماذا تكلم فى آخر رمق من حياته ؟ ! ليت ما نطق لقد قال كلمة رهيبة عظيمة .

لقد قال : عياذا بالله تعالى من ذلك . قال بكلمته العامية : [يلعن دينك ودين دينك ما بدّي أصلى ولا بدى أصوم] ثم مات على هذه الحال . نعوذ بالله تعالى من الخذلان .

٣- قال أحد الفضلاء :

كنا فى رحلة دعوية إلى الأردن وفى ذات يوم وقد صلينا الجمعة فى أحد مساجد مدينة الزرقاء وكان معنا بعض طلبة العلم وعالم من الكويت وبينما ونحن جلوس فى المسجد وقد انصرف الناس إذا يقوم يدخلون باب المسجد بشكل غير طبيعى وهم يصيحون : أين الشيخ ؟! أين الشيخ ؟! وجاءوا إلى الشيخ الكويتى فقال له : يا شيخ عندنا شاب توفى صباح هذا اليوم عن طريق حادث مرورى وإننا عندما حفرنا قبره ووضعناه فيه إذا بنا نفاجأ بوجود ثعبان عظيم فى القبر ونحن الآن لم نضع الشاب وما ندرى كيف نتصرف ؟

يقول الراوى : فقام الشيخ وقمنا معه وذهبنا إلى المقبرة ونظرنا فى القبر فوجدنا فيه ثعباناً عظيماً قد التوى رأسه من الداخل وذنبه من الخارج وعينه بارزة يطالع الناس .

يقول الراوى : فقال الشيخ : دعوه واحفروا له مكاناً آخر يقول: فذهبنا إلى مكان آخر بعد القبر الأول بمائتين متر تقريباً فحفرناه وبينما نحن فى نهايته إذا بالثعبان يخرج فقال الشيخ : انظروا القبر الأول فذهبنا إلى الأول فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض وخرج من القبر الأول مرة أخرى .

قال الشيخ : لو حفرنا ثالثاً ورابعاً سيخرج الثعبان فما لنا حيلة إلا أن نحاول إخراجه .

يقول الراوى : فجئنا بأسياخ وعصى فانحمل معنا وخرج من القبر وجلس على شفيره والناس كلهم ينظرون إليه وأصاب الناس ذعر وخوف حتى إن بعضهم حصل له إغماء فحملته سيارة الإسعاف .

وحضر رجال الأمن ومنعوا الاتصال بالقبر إلا عن طريق العلماء وذوى الميت .
يقول الراوى : وبينما جىء بالجنازة وأدخلت القبر إذا بذلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة ثار على أثرها الغبار ثم دخل من أسفل القبر فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف والتوى الثعبان على ذلك الميت بدأ من رجله حتى وصل رأسه ثم اشتد عليه فحطمه . يقول الراوى : إنا كنا نسمع تحطيم عظامه كما تحطم حزمة الكرات .
يقول الراوى : ثم لما هدأت الغبرة وسكن الأمر جئنا لننظر فى القبر وإذا الحال كما هى عليه من تلوى ذلك الثعبان على الميت وما استطعنا أن نفعل شيئاً وقال الشيخ : اردموه . فدفناه ثم ذهبنا إلى والده فسألناه عن حال ابنه الشاب؟ فقال : إنه كان طيباً مطيعاً إلا أنه كان لا يصلى . نعود بالله تعالى من سوء الختام .

أخى فى الله :

إن هذه الحادثة المفجعة عبرة وعظة لأولئك المضيعين للصلوات أن يتولوا إلى الله تعالى من هذا العمل الشنيع قبل أن تتخطفهم يد المنون وقبل أن تقول نفس : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٨) ﴿ الزمر] .

وتكون الإجابة الشافية الكافية :

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥٩) ﴿ الزمر] .

٤- قال الراوى : حدثنى أحدهم قال :

كنت مسافراً فى الدراسة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكان شأنى شأن كبير من الشباب الذين يقضون الليل فى الملهى والمرقص وذات يوم كنا آيين من لهونا وعبثنا ونقدم بعضنا إلى الإسكان أما واحد منا فقد استبطأناه وقلنا : لعله يأتى بعد سويعة ولم نزل ننتظره لكنه لم يأت فنزلنا نبحث عنه يميناً وشمالاً ثم قلنا أخيراً : لا بد أنه فى الموقف الذى يجعل للسيارة تحت البناء فدخلنا الموقف فوجدنا أن محرك

السيارة لا زال مشغلاً وصاحبنا ساكن لا يتحرك والموسيقى لا زالت ترن منذ آخر الليل حتى اللحظة التي فتحنا فيها باب السيارة . فتحنا الباب وناديناه يا أخانا ، يا صاحبنا فإذا به قد انقطع عن الدنيا منذ اللحظة التي وقفت فيها سيارته فى ذلك الموقف وكانت هذه النهاية المحزنة لذلك الشاب قد اشتعلت فى قلوب الكثير من أولئك الشباب يقظة وتوبة وإنابة إلى الله تعالى فعادوا إلى الله تائبين وما شربوا بعدها وما فجروا بل استكانوا وأنابوا بفضل الله ثم بتدبرهم الحال صاحبهم الذى مات على معصية الله وكانت نهايته موعظة لمن يريد الاتعاظ وأما المفرط المضيع فهو بمعزل عن ذلك .

٥- وها هو شاب من أولئك المنحرفين الذين كانوا يسافرون إلى [بانكوك] للفسق والدعارة بينما كان فى سكره وغيه ينتظر خليلته وقد تأخرت عليه فما هى إلا لحظات حتى أقبلت عليه فلما رآها خر ساجداً لها تعظيماً ولم ينهض من تلك السجدة الباطلة إلا وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة فنعوذ بالله من سوء الخاتمة .

٦- وها هم أربعة من الشباب كانوا يعملون فى دائرة واحدة مضت عليهم سنين وهم يجمعون رواتبهم فإذا سمعوا ببلد يفعل الفجور طاروا إليها وبينما هم فى ذات يوم جالسين إذ سمعوا ببلاد لم يذهبوا إليها وعقدوا العزم أن يجمعوا رواتبهم هذه المرة ليسافروا إلى تلك البلاد التى حددوها وجاء وقت الرحلة وركبوا طيارتهم ومضوا إلى ما يريدون ومرّ عليهم أكثر من أسبوع فى تلك البلاد وهم بين زنا وخمور وفعال لا ترضى الرحمن بينما هم فى ليلة من الليالى وفى ساعة متأخرة من الليل يجاهرون الله تعالى بالمعصية والفجور نعم بينما هم فى غمرة اللهو والمجون إذا بأحد الأربعة يسقط مغشياً عليه فيهرع إليه أصحابه الثلاثة فيقول له أحدهم فى تلك الليلة الحمراء يقوله له : يا أخى قل : لا إله إلا الله فيرد الشاب عياداً بالله : إليك عنى زدى كأس الخمر وتعالى يا فلانة . ثم فاضت روحه إلى الله وهو على تلك الحال السيئة . نسأل الله تعالى السلامة والعافية .

ثم كان حال الثلاثة الآخرين لما رأوا صاحبهم وما آل إليه أمره أنهم أخذوا ييكون وخرجوا من المرقص تائبين وجهزوا صاحبهم وعادوا به إلى بلاده محمولاً في تابوت ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسواد . عياداً بالله .

فاحذر أخى :

أن تكون خاتمتك على العصيان واستعد لما أمامك من الأهوال واعمل لدار طالما بكى لأجلها الصالحون وشمر لها المتقون لتكون من اللذين قال الله تعالى فيهم : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْصَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِئْسَ لِهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران] .

٧- وها هو أحد الفضلاء يقول: حدثنى أحد الذين يدرسون فى معهد من المعاهد العلمية فى بلادنا يقول: أقسم بالله ثلاثاً وليس لى حاجة أن أكذب إننى كنت مريضاً فى أحد المستشفيات فأتى بمرىض بجانبى فى الغرفة التى كنت مطروحاً فيها على السرير .

يقول: وكان ذلك المريض أصفر اللون فإذا به فى اليوم التالى ينقلب لونه إلى الحنطى وفى اليوم الثالث يكون لونه كأمثالنا . يقول : فقلت لعله قد بدأ يتحسن ولكن للأسف جاء اليوم الرابع فإذا بلونه ينقلب إلى الأسود وفى اليوم الخامس يشتد سواده أكثر فأكثر .

يقول : فارتعدنا وخفنا من هذا الرجل وقد كنت أعرفه قبل ذلك كان ممن يتخلف عن الصلوات كان ممن يسافر خارج البلاد ويتعامل بالمخدرات ولا حول ولا قوة إلا بالله .

اقتربت منه وبدأت أقرأ عليه القرآن فإذا به تخرج منه روائح كريهة منتنة . عياداً بالله . يقول ولما بدأت أقرأ عليه القرآن شهق شهقة عظيمة فخفت وابتعدت فقال لى مريض آخر : واصل القراءة فقلت : والله لن أقرأ عليه . قال : اذهب إلى فلان فى الغرفة المجاورة وناده ليقرأ عليه فجاء هذا الشاب الآخر وبدأ يقرأ عليه . يقول :

فشهق شهقة أخرى عظيمة وما زال يواصل القراءة عليه حتى شهق للمرة الثالثة شهقة مخيفة . ثم طلبوا الطبيب فجاء . ووضع السماعة على صدره ثم قال : لقد مات .

نعم لقد مات وفارق الحياة وكانت له هذه الخاتمة السيئة لأنه كان مسيئاً في جنب الله غير مراعى لحدوده ومن كان على هذه الحال من الضياع والفساد فحقه أن يختم له بذلك جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد .

وقال الشيخ سلمان العودة :

وهناك قصة حدثنى بها بعض العاملين فى تلك البلاد [بانكوك] حين زرتها وهى أن رجلاً خليجياً يزيد عمره على ستين سنة جاء إلى تلك البلاد بلاد الإباحة والرذيلة والفساد واستأجر غرفة فى أحد الفنادق وأخذ يعب من الخمر عباً ففى اليوم الأول شرب ست قوارير ثم أتبعها بثلاث ثم لحقها بائنتين حتى شعر بالامتلاء وأحس بوضع غير طبيعى فذهب إلى دورة المياه لكى يتقيأ فسقط هناك . ولما طال المكث فيها طرّقوا عليه الباب ثم فتحوه فوجدوا الرجل ميتاً فى أحسن مكان وإذا برأسه فى مصرف المياه والنجاسات . « جلسة على الرصيف » ص ٦٢ .

وقصة أخرى حدثنى بها ثقة وهى أن صديقاً له كان له أخ منحرف يعتقد بالعقائد الخبيثة الكفرية من عقائد العلمانيين والشيوعيين وغيرهم فكان أخوه يناصحه فلا يستجيب له فمرض ذلك المنحرف مرضاً شديداً أصيب بالسرطان ولزم الفراش فكان أخوه يأتية ويتحدث إليه ويرجو هدايته لعل الله يختم له بخير . وفى أحد الأيام قال ذلك المريض لعل الله يكتب لأخى خاتمة سعادة . قال : فأتيت بالمصحف فلما رآه قال : هذا المصحف؟ قلت : نعم . قال : عن نفسه : إنه كافر بهذا المصحف ثم مات من لحظته والعياذ بالله . « نفس المرجع ص ٦٣ ، ٦٤ » .

وكتب محمود عبد الخالق السعداوى فى [مجلة] منار الإسلام [باب] سياحة قلم . وها هى نهاية فتاة الإسكندرية فمنذ أيام قليلة حدثت حادثة اهتز لها وجدان المجتمع السكندرى ففى إحدى سيارات النقل الداخلى [الميكروباصر] كانت فتاة فى

العشرين من عمرها تركب السيارة وقد ارتدت ثياباً شفافاً صارخة فى التبرج والفتنة وقد بلغت الفتاة فى إظهار مفاتها مبالغة شديدة تجرح الحياء .

وكان فى المقعد الخلفى وراءها رجل عجوز ذو شيبة وقد أخجله منظر الفتاة المستهتره فقال لها هامسا فى أذنها بأدب جم : يا بنيتى !! كان من اللائق بك أن تسترى نفسك أفضل من ذلك فهذه الثياب الشفافة تغرى بك الذئاب والبشرية الضالة كما أنها تخذش الحياء وتثير الفتنة .

قالت الفتاة : وأنت مالك ؟ هل ستدخل معى فى قبرى ؟ هل فى يدك أن تدخلنى الجنة أو تدخلنى النار . . . إلخ ؟ وظلت الفتاة البلهاء تقزع الرجل حتى تمادت فى ذلك ثم زادت جرأتها ووقاحتها وقالت له بكل سخرية واستهزاء ها هو هاتفى المحمول خذه واتصل بالله كى يحجز لى غرفة فى جهنم وأطلقت الفتاة ضحكة عابثة مستكبرة مجلجلة .

ارتعب الرجل وانتفض من قولها ورد قائلاً : أستغفر الله العظيم . رب العرش العظيم . حسبى الله ونعم الوكيل . وكف الرجل عن الكلام تماماً وبدا أنه قد شعر بالندم والتسرع لأنه نصح هذه الفتاة اللاهية الجاهلة .

وبعد عشر دقائق . مضت فى سكون وصمت . صاح السائق وصلنا إلى المحطة استعدوا للنزول ونظر الجميع إلى الفتاة لكى تنزل وكانت بجوار باب السيارة ، فإذا بها ذهبت فى النوم فقال للرجل : أوقفها من النوم وعندما هزها الرجل قليلاً . اكتشف الجميع إلى المفاجأة . لقد أسلمت الروح إلى بارئها .

اهتزت مشاعر الركاب من هول الموقف وأخذوا يسترجعون . فالفتاة التى كانت تسخر من خالقها وتقول : ها هو الهاتف المحمول . . . اتصل بالله كى يحجز لى غرفة فى جهنم . . . قد رحلت إلى ربها .

سبحانك يا رب ما أجرأ هذا المخلوق المسكين الضعيف وتطاوله عليك . . . إن المدة الفاصلة بين الحياة والموت هى جزء من الثانية . فهذه الساخرة من ربها قد ختمت

حياتها بالسخرية من ربها .

عندما وقعت هذه الحادثة المليئة بالعبر تذكرت حديث النبي ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » [رواه البخارى . كتاب الرقاق . باب حفظ اللسان ٢٦٦/١١] .

كما تذكرت قوله ﷺ . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفاً في النار » . [مسند احمد ٢٠٤/١٢ . ط المعارف] .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : « . . . وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها في جهنم » . [البخارى . كتاب الرقاق . باب حفظ اللسان ٢٦٦/١١ - ٢٦٧] .

حقاً صدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « إنما الأعمال بالخواتيم » .

[البخارى كتاب الرقاق . باب الاعمال بالخواتيم ٢٨٣/١١] .

علامات حسن الخاتمة

وهذه هي بعض علامات حسن الخاتمة التي ذكرها النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة .

١- نطقة بالشهادة عند الموت :

لقوله ﷺ : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة »

[رواه أبو داود (٣١١٦) والحاكم في المستدرک ٣٥١/١ ، ٥٠٠ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، صحيح الجامع (٦٤٧٩)] .

٢- الموت برشح الجبين :

لحديث بريدة بن الحطييب رضي الله عنه أنه كان بخراسان فعاد أخاً له وهو مريض فوجده بالموت وإذا هو بعرق جبينه فقال : الله أكبر !! سمعت رسول الله ﷺ يقولك « موت المؤمن بعرق الجبين » .

« صحيح الجامع (٩٦٦٦٥) ، رواه أحمد والحاكم وصححه على شرط مسلم » .

٣- الموت ليلة الجمعة أو نهارها :

لقوله ﷺ : « ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر » أخرجه أحمد والترمذي والالباني في أحكام الجنائز (ص ٣٥) .

٤- الموت على عمل صالح :

لقوله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة ومن صام يومًا صابراً ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة » .

« صحيح الترغيب (٩٧٢) وأخرجه أحمد (٣٩١/٥) عن حذيفة وإسناده صحيح » .

٥- الاستشهاد فى ساحة القتال :

لقوله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن الفرع الأكبر ويحلى حلية الإيمان ويزوج من الحور العين ويشفع فى سبعين إنساناً من أقاربه » . [صحيح الجامع ٥١٨٢] .

وترجى هذه الشهادة لمن سألها مخلصاً من قلبه ولو لم يتيسر له الاستشهاد فى المعركة لقوله ﷺ : « من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » . أخرجه مسلم والبيهقى عن أبى هريرة .

٦- الموت غازياً فى سبيل الله :

عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من فصل - أى خرج - فى سبيل الله فمات أو قتل فهو شهيد أو وقصه فرسه أو بعيره - أى كسرت عنقه أو لدغته هامة أو مات على فراشه بأي حتف شاء الله فإنه شهيد وإن له الجنة » [صحيح الجامع ٦٤١٣] أخرجه أبو داود والحاكم والبيهقى .

٧- الموت بالطاعون :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون شهادة لكل مسلم » رواه البخارى ومسلم .
وفيه أحاديث كثيرة عنه ﷺ غير هذا .

٨- الموت بداء البطن :

وفى حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : « من مات فى البطن - أى بداء البطن وهو الاستسقاء وانتفاخ البطن وقيل : هو الإسهال وقيل الذى يشتكى بطنه - فهو شهيد » . رواه مسلم وأحمد .

٩ ، ١٠- الموت بالفرق والهدم :

لقوله ﷺ : « الشهداء خمسة : المطعون والمبطون والفرق وصاحب الهدم

والشهيد في سبيل الله » . « رواه البخارى ومسلم » .

١١ ، ١٢ ، ١٣ - موت المرأة في نفاسها بسبب ولدها والموت بالحرق وذات الجنب :

لحديث جابر بن عتيك عن النبي ﷺ : « الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله : المطعون شهيد والغرق شهيد وصاحب ذات الجنب شهيد والمبطون شهيد والحرق شهيد والذي يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجمع - تموت وفي بطنها ولد - شهيدة » . « رواه مالك وأحمد وابن ماجه والنسائي والحاكم » .

١٤ - الموت بداء السل :

لحديث راشد بن حبيش عن النبي ﷺ وفيه : « والسُّلُ » يعنى أنه شهادة - [المسند (٤٨٩١٣) وإسناده صحيح .

١٥ ، ١٦ ، ١٧ - الموت في سبيل الدفاع عن المال المراد غصبه أو الدفاع عن الدين والنفس :

لحديث سعيد بن زيد عن النبي ﷺ قال : « من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد » . « إسناده صحيح أخرجه أحمد في المسند والنسائي وأبو داود والترمذى » .

١٨ - الموت مرابطاً في سبيل الله :

وصح من حديث سلمان عن رسول الله ﷺ قال : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » . « رواه مسلم والنسائي والحاكم وأحمد وابن حبان والبيهقي والترمذى » .

أمثلة على حسه الخاتمة

هذه نماذج من وفيات السابقين إلى الرحمن تبين حسن الخاتمة :

فهذا سعد بن معاذ يقول عن جرحه الذى مات به : اللهم افجره أى شوقاً إليك فيهتز عرش الرحمن فرحاً بموته .

وهذا حنظلة بن أبى عامر يخرج للجهاد ويترك فراشه وزوجه مليئاً نداء رسول الله ﷺ فيصاب فتغسله الملائكة .

والربيع بن خثيم حليف الخوف والأحزان والأشجان تدخل عليه ابنته وهو فى السياق فتقول : وا كرب أبتاه . فيقول لها : بل قولى وا فرحاه وا طرباه .لقى أبى الخير .

وربعى بن حراش الذى عاهد الله ألا يراه ضاحكاً فى دار الدنيا يتسم على مغسلة . انتهت الدنيا بأحزانها وأقبلت الآخرة بسرورها .

ومحمد بن المنكدر الذى عرفته الليالى متهجداً باكياً وكانت أمه تستعين عليه بأخيه عمر بن المنكدر وأبى حازم حتى يكف عن البكاء طوال الليل فلما جاءه الموت أتى صفوان بن سليم إليه فما زال يهون عليه الأمر وينجلى عن محمد حتى لكان وجهه المصابيح ثم قال له محمد : لو ترى ما أنا فيه لقرت عينك . ثم قضى رحمه الله . « الثبات عند الممات ص ١٤١ ، ١٤٢ » .

وهذا عامر بن عبد الله بن الزبير الإمام الربانى الذى اشترى نفسه من الله ست مرات يعنى يتصدق كل مرة بدينه والذى قال فيه الإمام مالك : ربما انصرف عامر من العتمة فيعرض له الدعاء فلا يزال يدعوا إلى الفجر سمع المؤذن وهو يجود بنفسه فقال : خذوا بيدى فقيل : إنك عليل قال : أسمع داعى الله فلا أجيبه ؟ فأخذوا بيده فدخل مع الإمام فى المغرب فركع ركعة ثم مات . « انظر ترجمة عامر فى السير (٢١٥/٥)

وشيخ الشافعية ابن الإسماعيلي : إسماعيل بن شيخ الإسلام أبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي وكان إمام زمانه فى الفقه وأصوله مع الورع الثخين والمجاهدة والنصح للإسلام والسخاء وحسن الخلق .

توفى إكراماً من الله فى صلاة المغرب وهو يقرأ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سير أعلام النبلاء (١٧ / ٨٧ - ٨٨)] .

وشيخ الإسلام الفقيه نصر المقدسى الشافعى . صاحب التصانيف والأمالى حكى عنه تلميذه الفقيه نصر الدين المصيصى أنه قبل موته بلحظه سمعه وهو يقول : يا سيدى أمهلونى أنا مأمور وأنتم مأمورون ثم سمعت المؤذن بالعصر فقلت يا سيدى المؤذن يؤذن فقال : أجلسنى فأجلسته فأحرم بالصلاة ووضع يده على الأخرى وصلى ثم توفى من ساعته رحمه الله . [سير أعلام النبلاء (١٩ / ١٤٢ - ١٤٣)] .

والإمام الزبيدى العابد الواعظ محمد بن يحيى بن على القرشى .

قال ابن عساكر : قال ولده إسماعيل . كان أبى فى كل يوم ليلة من أيام مرضه يقول : الله الله نحواً من خمسة عشر ألف مرة فما زال يقولها حتى طفىء . [سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٣١٦ - ٣١٩)] .

والإمام الحافظ عبد الغنى المقدسى العابد الأثرى علم الحفاظ قال له ابنه أبو موسى فى مرض موته ما تشتهى ؟ فيقول : أشتهى الجنة . أشتهى رحمة الله لا يزيد على ذلك أشتهى النظر إلى وجه الله تعالى سبحانه . وجاء جماعة يعودنه فسلموا فرد عليهم وجعلوا يتحدثون فقال ما هذا ؟ اذكروا الله قولوا : لا إلا الله فلما قاموا جعل يذكر الله بشفته ويشير بعينه فقمت لأناول رجلاً كتاباً من جانب المسجد فرجعت وقد خرجت روحه . [سير أعلام النبلاء ترجمة الحافظ ٢١ / ٤٤٣ - ٤٧١] .

وشيخ الإسلام حماد بن أبى سلمة قال عفان : قد رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمة لكن ما رأيت أشد مواظبة على الخير وقراءة القرآن والعمل لله تعالى منه .

وقال موسى بن أبى إسماعيل التبوذكى : لو قلت لكم : إنى رأيت حماد بن سلمة ضاحكاً لصدقت كان مشغولاً إما أن يحدث أو يقرأ أو يسبح أو يصلى قد قسم النهار على ذلك . قال يونس بن محمد المؤدب : مات حماد بن سلمة فى الصلاة فى المسجد . « سير اعلام النبلاء » [٤٤٤/٧ - ٤٥٦] .

والجنيد رحمه الله يقول الجريرى واصفاً وفاته : كنت واقفاً على رأس الجنيد فى وقت وفاته وهو يقرأ القرآن فقلت له : ارفق بنفسك فقال لى : يا أبا محمد أرايت أحداً أحوج إليه منى فى هذا الوقت وها أنا ذا تطوى صحيفتى وكان قد ختم القرآن الكريم ثم بدأ بالبقرة فقرأ سبعين آية ثم مات رحمه الله .

وشيوخ الإسلام ابن قدامة : الذى لا يكاد يسمع دعاء إلا حفظه ودعا به يموت وهو عاقد على أصابعه يسبح « شذرات الذهب لابن عماد الحنبلى (٢٨/٥) » .

وعبد الله بن أبى السرح يموت وهو يصلى .

والإمام أبو الحسن على بن مسلم بن محمد الفقيه توفى وهو ساجد فى صلاة الفجر فى ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة . طبقات الشافعية للسبكي (٢٨٣/٤) .

والإمام إبراهيم بن هانئ النيسابورى صاحب الإمام أحمد الذى قال الإمام أحمد لولده ، لست أطيق ما يطيق أبوك يعنى من العبادة « تاريخ بغداد (٢٠٦/٦) » .

والذى كان عرف بكثرة صومه انظر إلى خاتمه يرويها لنا أحد أصحابه : حضرت وفاة أبى إسحاق النيسابورى فجعل يقول لابنه إسحاق : يا إسحاق ارفع الستر . قال : يا أبت الستر مرفوع . قال : أنا عطشان . فجاءه بماء قال : غابت الشمس ؟ قال : لا . قال : فردّه ثم قال : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات] . ثم خرجت روحه . [تاريخ بغداد (٢٠٦/٦)] .

أبو جعفر القارئ أحد الأئمة العشرة فى حروف القراءات واسمه يزيد بن القعقاع المدنى والذى قرأ عليه نافع وحدث عنه مالك بن أنس وكان يقرئ قبل وقعة الحرة والذى مسحت على رأسه أم سلمة ودعت له وكان يصلى خلف القراء فى رمضان يلقنهم يؤمر بذلك .

قال نافع : لما غُسل أبو جعفر نظروا ما بين نحره إلى فؤاده كورقة المصحف فما

عبد إلى ربك فباب التوبة مفتوح

أخى الحبيب : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥٣) [الزمر] .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم .

وفى حديث صفوان بن عسال : أيضاً أنه ذكر باباً للتوبة مسيرة سبعين عاماً لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » . صحيح رواه الترمذى .

وعن عبد الله بن عمر مرفوعاً : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » . رواه أحمد والترمذى وابن ماجة صحيح الجامع (١٩٠٣) .

إذن . . . عجل يا أخى الحبيب عجل ما دام الباب مفتوحاً قبل أن تطلع الشمس من مغربها فلا تنفعك التوبة وما يدريك فلعلنا نعيش قرب الأشرار الكبري للساعة أو نحن على أبوابها ونحن لا ندري فأقول لك : عجل التوبة أن تغرغر قبل أن تتردد الروح فى حلقك فحينئذ لا تقبل منك التوبة .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم صحيح الجامع (٤٥١٥) .

فيا أخى الحبيب . . . والله إنى لك محب وعليك مشفق ولك ناصح حاول أن تكون من التوابين كلنا خطاؤون فمن منا التوابون ؟

أخى : أفلح عن المعصية . . . تب إلى الله يتوب عليك . . اندم على ما فات باستقباح الذنب . . اعزم على ألا تعود .

أخى : إن الباب مفتوح والفرصة ما زالت سانحة وأمامك عطاء مقبول .

قل : تبت والله يقبل توبتك فاستعن بالله ولا تعجز فإن النصر مع الصبر

والفرج مع الكرب وإن بعد العسر يسرا وإياك من وسوسة الشيطان أن يقول لك : إنك لن تقدر على التوبة . . . فقل : إن شاء الله سأقدر عليها فمعى القوى المتين سيعيننى أحسن ظنك بالله وهو يعينك .

وانظر يا أخى إلى هذا الحديث العظيم الذى كان أبو إدريس الخولانى إذا حدث به جثا على ركبته والذى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل « ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث » .

عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . يا عبادى كلکم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم . يا عباد كلکم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم . يا عبادى كلکم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسکم . يا عبادى إنکم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لکم . يا عبادى إنکم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . . يا عبادى لو أن أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منکم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . . يا عبادى لو أن أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم كانوا على أفجر رجل واحد منکم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى إنما هى أعمالکم أحصيها لکم ثم أوفیکم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » . « رواء مسلم » .

انظر إلى كرمه : أبواب العباد مغلقة ومفاتيح الأبواب بيده وبابه مفتوح لمن دعاه . . . ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢] .

يا صاحب الخطايا أين الدموع الجارية يا أسير المعاصى إبك على الذنوب الماضية يا مبارزا بالقبايح أتصبر على الهاوية ؟! يا ناسياً لذنوبه والصحف للمنى حاوية . أسفاً لك إذا جاءك الموت وما أنبت « أى ما رجعت » وا حسرة لك إذا دعيت إلى

التوبة فما أجبت . كيف تصنع إذا نودى بالرحيل وما تأهبت ؟! ألت الذى بارزت
بالكبائر وما راقبت ؟!

قد مضى فى اللهو عمرى	وتناهى فيه	أمرى
شمر الأكياس وأنا	واقف قد سيب (١)	أمرى
بان ربح الناس دونى	ولحيتى بان	خسرى
ليتنى أقبل وعظى	ليتنى أسمع	زجرى
كل يوم أنا رهن	بين آثامى	ووزرى
ليت شعرى هل أرى لى	همة فى فك	أسرى
أو أرى فى ثوب صدق	قبل أن أنزل	قبرى
ويح قلبى من تناسيه	مقامى يوم	حشرى
واشتغالى عن خطايا	أثقلت	والله ظهرى

أخى: اعلم أن التوبة ليست كلاماً .

إن النائب : منكسر القلب . غزير الدمعة . حى الوجدان . قلق الأحشاء . صادق
العبارة . جَمَّ المشاعر - جيَّاش الفؤاد - مشبوب الضمير خلى من العجب - فقير
من الكبر - مقل من الدعاوى . بين الرجاء والخوف بين السلامة والعطب - بين
النجاة والهلاك - فى قلبه حرقه - فى وجدانه لوعة - فى وجهه أسى - فى دمه
أسرار - يعرف معنى الهجر والوصال - يعرف معنى الوصال واللقاء - يفرق بين اللقاء
والفراق بين الإقبال والإعراض مُجرب . . ذاق العذاب فى البعد عن الله وذاق
النعيم حين اقترب من حب الله .

النائب : له فى كل واقعة عبرة إذا رأى جمعاً ذكر القيامة وإذا رأى مذنباً بكى

عليه خوفاً من ذنوبه وإذا رأى نعيماً خاف أن يحرم الجنة إذا رأى ناراً ظن أنه مواقعاً .

الثائب : إذا هدل الحمام بكى . وإذا صاح الطير ناح . وإذا شذا البلبل تذكر . .
وإذا لمع البرق اهتز قلبه . خوفاً ممن يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته يجد
للمطاعة حلاوة ، يجد للعبادة طلاوة، يجد للإيمان طعماً . يجد للإقبال لذة . يكتب
من الدموع قصصاً - وينظم من الآهات أبياتاً - ويؤلف من البكاء خطاباً - كالأم
اختلس منها طفلها . . . ثم اختلست طفلها من يد الأعداء - أتدرى كم فرحتها ؟
أتقدر سعادتها ؟

الثائب : كالفائض في البحر . إذا نجا من اللجة إلى الشاطئ . بعد أن أيس من
النجاة . كالعقيم بشر بالولد . كالرجل البارز للإعدام ثم عفى عنه . أعتق رقبته من
أسر الهوى . أطلق من سجن المعصية . فك روحه من شباك الجريمة - أخرج نفسه
من كبر الخطيئة .

لو رأيت الثائب . . لرأيت جفنًا مقروحاً . تبصره في الأسحار على باب
الاعتذار مطروحاً . سمع قول الإله فيما يوحى ﴿ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨]
مطعمه يسير وحزنه كثير ومزعجة مثير فكأنه أسير قد رمى مجروحاً أنحل بدنه الصيام
وأتعب قدمه القيام حلف بالعزم على هجر المنام فبذل جسداً وروحاً ﴿ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ
تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ .

الذل قد علاه والحزن قد وهاه . يذم نفسه على هواه وبهذا صار ممدوحاً . أين
من يبكى جنایات الشباب التي بها اسود الكتاب . أين من يأتي إلى الباب يجد الباب
مفتوحاً . ﴿ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ .



الفهرس

الصفحة

الموضوع

- ١- المقدمة ٥
- ٢- النهى عن تمنى الموت إلا عند خوف ذهاب الدين ٧
- ٣- ذكر الموت والاستعداد له ١٢
- ٤- سكّرات الموت ٢٦
- ٥- أحوال السلف عند الاحتضار ٣٤
- ٦- من هو الغريب ؟ ٤٧
- ٧- حديث البراء بن عازب فى قبض روح المؤمن والكافر ٤٩
- ٨- أين مستقر الأرواح بعد الموت ؟ ٥٣
- ٩- حفل تتلافى أرواح الأحياء والأموات ؟ ٥٨
- ١٠- هل يسمع الميت الأحياء ويشعر بهم ؟ ٦٠
- ١١- ما ينتفع به العبد بعد موته ؟ ٦٤
- ١٢- خوف السلف من سوء الخاتمة ٧٤
- ١٣- أسباب سوء الخاتمة ٧٧
- ١٤- أمثلة من علامات سوء الخاتمة ٨٣
- ١٥- أمثلة واقعية على علامات سوء الخاتمة ٨٧
- ١٦- علامات حسن الخاتمة ٩٧
- ١٧- أمثلة على علامات حسن الخاتمة ١٠٠
- ١٨- عد إلى ربك فباب التوبة مفتوح ١٠٤